

## «قرينة»

اعتديت إلى مقهى الكرنك معاذرة . ذهبت يوما إلى شارع  
الهدى لإصلاح ساعتى . تغلب الإصلاح بطبع ساعات كان على  
أن أنتظرها . قررت مهادة الوقت في مشاهدة الساعات والحقى  
والتحف التي تعرضها الدكاكين على الصنّين . عثرت على القهى  
في تقلى نقصدته . ومنذ تلك الساعة صار مجلسي المقفل . رغم  
صغره وانزواكه في شارع جانبي صار مجلسي المقفل . الحق إلى  
ترددت قليلا يادئ الأمر أمام مدخله ، حتى لمحت فوق كرسى  
الإدارة امرأة دائية الضيغوخة ولكنها محافظة على أثر جمال  
منذر . حركت قسملها الدقيقة الواحدة جلدور ذاكرتي فتجهرت  
بتابع الذكريات . سمعت عزفا وطيل ، شملت بشورا ، رأيت  
جسدا يتسوح . راقصة ، نجمة عماد الدين ، الراقصة ترنقلة ، حلم  
الأرميمات الزردى ، ترنقلة . هكذا مررت إلى الكرنك بقوة سحر  
مبهمة ولؤاد طروب ، من أجل شخص لم أكرهه يوما . لم تلم  
بيننا علاقة من أي نوع كان ، لعاطفة أو مصلحة أو حتى مجاملة ،  
كأنث نجمة وكنت أحد المعاصرين . لم تترك نظراتي المعبجة على

جسدها العبرى أفرأ أى أثر ، ولا كان لى حق التحية العابرة . من مجلسي أجلت البصر لأحاط بالمكان . كأنه حجرة كبيرة ليس إلا ولكنه أثيق رشيق ، موزق الجدران ، جديد الكراسى والموائد ، متعدد الزوايا ، ملون المصابيح ، نظيف الأواني ، ياله من مجلس دى جلاوية لا تقوم . ونظرت إلى قرنفلة طويلا ، كلما وجدت فرصة . انقضت أسحر الأثورة وجف رواق الشيباب ولكن حلت محلها روعة غامضة وأسى مؤثر ، ما زالت تحيلة وشيعة يوحى عودها بالانفاس والحيرى . وثمة قوة مهابة مكتوبة من الشهرة والعمل . أما خفة الروح فأسرة نفاذة . تحرك نظرها الشاملة الساقى والخرسون وعامل النظافة وترعى الزوائد المزددين . كأنهم لخصر المكان أسرة واحدة . مجردة وأثمة . يوجد ثلاثة شيوخ لعلهم من أصحاب الماشات ، وكهلى ، ومجموعة من الشبان بينهم ثلاثة حسناء ، لذلك شمرت بالفرية وأثنت دخيل ، رغم لشوى . قلت اللهم كفى أحب هذا المكان ، القهورة فاعسرة وإلهة تقى علب والنجبان والكوب أيشان فى الظفافة . . عادية قرنفلة ، وقار الفيرخ ، حيرة الشيباب ، جمال القفلة ، وموقع التقهى فى وسط الدنية الكبيرة يصلح استراحة لجرأك مطلى ، وثمة عناق حارين الماضى والحاضر ، الماضى العلب والحاضر الجديد ، ثم سحر الضاربة للجهولة . فما أن تعظمت ساعتى حتى وقعت فى شرام متعدد الأبعاد ، وإذاً ولكن الكرنك مسخرى كلما سمع الأذان . وحذت ما اعتيرته منجأة سارة . بنا أن قرنفلة أراوت مجاملى بصفتى زبونا جديدا ظلمات من مجلسها وجامتى فخطر فى بظنون كعلى وبلازة بيهام ، وقتت أمامى وقالت :

٦

.. شرفت .

تصافحتا وأنا أشكر لها مجاملتها لمساتنى :

.. هل أصبحيك القهورة ؟

.. قلت بصدق :

.. جنى ، بن ممتاز حقاً . .

فأبسمت بسمرد ، ورثت إلى مليا ثم قلت :

.. يخليل إلى أنك تذكرتى ؟

.. لعلنا ، من يتسى قرنفلة ؟

.. ولكن هل تذكرت دورى الحقيقى فى القن ؟

.. أجل ، كنت أول من جدد فى الرقص الغربى .

.. هل سمعت أو قرأت أحدا يوده بذلك ؟

.. قلت بارتياح :

.. تصاب الأم أحيانا بشقدان الماكورة ولكن ذلك لا يدوم إلى الأبد .

.. كلام جميل ولا شيء وراء ذلك . .

.. ولكننى قررت حقيقة لا شك فيها . .

ثم تهربت من الخرج قائلا :

.. أجننى لك حياة سعيدة ورحم الأهم . .

٧

قالت ضاحكة:

.. حتى الآن فالنهاية تبدو سعيدة. .

ثم وهي تودعني راجعة إلى كرمي الإدارة:

.. والعلم عند علام الغيوب!

مكثا ولي يشرح التعارف بيتنا، وتخففت عنه صداقة جديدة سعدت وما زلت أسعد بها. هي جديدة بمعنى من المعاني، ولكن جذورها الخفية توغل في الماضي على مدى ثلاثين عاما أو أكثر. وتمايحت التلغيمات وتراكمت الأحاديث وتوقلت المودة وتلاكرت يوما كم كانت محترمة بقدر ما كانت ذائبة بارعة ثقلت لها:

.. كنت ذائبة بارعة ومحترمة معا، ألم يكن يعد ذلك محموزة؟!

فأجاب بزهو:

.. كان الرقص الشرقي حزا للبطن والصدر والمجر لجعلته تصويريا. .

.. وكيف تيسر لك ذلك؟

.. كم تكن ثلوثي خللات الرقص الأثري إلى اليرجولا.

ثم حزت رأسها في دلال وقالت:

.. أما الاحترام فقد نام سلوى الدام على ألا أتبل علاقة إلا من حب ولا أمارسها إلا من زواج.

فصاحمت بتعجب:

٨

.. دكما وأينا؟

فصاحت خائفة:

.. ألا يكفي أن يكون الطابع العام هو الاحترام؟

فأجبت رأسي بالإيجاب، وفشمت هي بما لم أقيمه، ثم قالت:

.. الحظ الصادق يقضي على العلاقة شرعية غير منكرة.

.. لذلك لم تصرغي لك مجلة بسوء.

.. حتى المطرقة!

قللت باسمها:

.. ولكن كثيرين التحرقوا بسبك!

فتهدت ثالثة:

.. حياة الليل مرتبة بالأمس.

.. مازلت أذكر موقف المايه.

فقاطعتني خامسة:

.. أسكت، أقصد عارف سليمان؟. إنه على بعد أمتار منك،

هو السائق الواقف وراء الباب.

استمرت إليه النظر في وقفته التقليدية. مترجلى، أبيض الرأس، تمسك حينه نظرة ثقيلة ودجمة، ولا شك أنها قرأت اللدشة في عيني فقالت:

٩

.. لم يكن ضحية لي كما قد تظن ، كان ضحية ضحية ..

وقضت علي ثعة عادية . لقد جن بها ولكنها لم تشجعه قط . ولم تكن موارده تسمح له بالتفرد الدائم على الملأى فامتدت يده إلى اختلاس أموال الدولة . وظهر بين أفراد الكوارثين ولكنها لم تمل منه مليما واحدا ولم تنشأ بينهما إلا العلاقة الرسمية التي تنشأ بحكم تقاليد الملاهي الليلية ، ولم يقدم غطوة حتى ضبط متلبسا قدم للمحاكمة ودخل السجن .

.. إنها مسألة ولكن لا ذنب لي فيها ، ولا غادر السجن بعد سنوات جاني في اللهي نفسه وقال لي لقد ضمت إلى الأبد ، ريث له وتوجست منه خيفة لتشتت له عند صاحب اللهي فأخفه بوظيفة جرسون ، ولا أضرت العمل وتحت هذا القهي اختره للعمل الساتي وهو يقوم به على ما يرام .

نسجت على شاري متصلا :

.. ألم يسن إلى غرامه القديم ؟

.. بلى ، وهو جرسون في اللهي ، وضياني حتى تعرض لعلة أكيمة وكنت يومذاك زوجة للقل بطل ربح الأتقال ، ثم توج بعد عام من راقصة من الكومبارس ما زالت زوجته ، وأما لسبع بنات من صلبه ، وأعتقد أنه اليوم موق وسعيد . . .

ثم ومن ترق في الضحك :

.. بحلولنا أحياء اليوم أن تبادل الحب شقويا .

30

مكنا الماضي ينس ؟

.. ولكن كان له زميل وثب على غير توقع إلى وظيفة وكيل المالية ، كان يقيم على الحيات من أجله حتى أحاقته الثورة إلى العاش لهذا نكاه وعشق الثورة .

انضممت إلى أسرة الكرنك بصفة نهائية ونقلت الأسرة في صميم حيالي . منحني ترقة صداقتها ومنحتها ، لبت الثرد مع الشيوخ محمد بهجت ورياد سمدي وعط المرهب . عرفت الشباب وعرفوني خاصة زينب دياب وإسماعيل الشيخ وحلمى حمادة ، كما عرفت زين العابدين عبد الله مدير العلاقات العامة بإحدى المؤسسات ، حتى إمام القوال الجرسون وجمعة مساح الأحادية وعامل النظافة صارا لي صديقين وعرفت سر الكرنك الاقتصادي فهو لا يعتمد أساسا على زكاته المحدودين ولكن على أصحاب الحواثي بشارع الهدي وزناهم ، وهو السر وراء جرة مشروبه وأميالها . ومن أسراره أيضا أنه كان يوما زك . جميع أسرات منظمة الدالة ، تمسح بزناهم العالية والمخافة عن حقائق التاريخ الحي . لا يمكن أن تنسى أحداث الثوم على عهد انضمامي إليهم . لا يمكن أن ينسى امتنان ترقة وهي تقول عند أي منسية :

.. لتحمده الله الذي أنعم علينا بالثورة .

وكان حارف سليمان الساتي زين العابدين منير العلاقات العامة بلسان الثورة أيضا ، كل يلققه ونوايه ، ولم يكن الشيوخ أقل حملا وإن رددوا أحياء وحذرديد :

31

..لم يكن للناقص شراً خالصاً.

ومن ركن الشباب أتت الحساس فوراً كالهدى . هند أكثرهم  
بدأً اتواخ بالكونة مختلفاً ورامه جمالية مرزولة خامسة . إنهم  
أبناء الحقيقيون ولولاها كشره أكثرهم في الأثرة والحواري  
والضياع . قد تده منهم أيضاً أصوات معارضة قوى يسارية  
مضطرة أو إخوانية حذرة خامسة ولكنها لا تلبث أن تضيق في  
الهدى الشامل . ولتت نظري بصفة خاصة إمام القول الجرسون  
وجمة مسلح الأخذية ، يتغنيان بعتر وفوحاته ، يمانيان مرارة  
العيش ولكنهما يتغنيان بعتر وثو حاته ، كأن الفقر قد جان عليهما  
من أجل التنصر والكراسة والأمل . على أن تلك الشوة لم يزد  
فيها أحد حتى الحسدون والحادثون . لم يخل أحد من رواسي  
ألك والهنيمة والحد لان فاليهم القلم نحو الكأس للشرة  
بتحديت الأعدو القديم ، نهلوا منها حتى الكمال وأجروا  
يرتصون من وجد الطرب ، وأي جدوى ترجى من اللقد عند  
السكران ؟ . أقول الرشوة . الاختلاس . الفساد . القبح  
والإرهاب ؟ . . مظل ، أو فليكن ، أو أنه شر لا بد منه ، أو ما أنه  
ذلك ، حذ رشقة من الكأس السحرة وأدنى معنا .

\*\*\*

عندما ترجع فرافلة من عند الحلاق تسترد إلى حين قدرا من  
الجمال وتشغل الحيوية في عينيها المسليتين . وأغرائ ذلك مرة  
لأن أسأله :

.. لا زوج الآن ولا ذرية ؟ .

١٦

ولكنها لم تجب وتدمت على ما فرط مني . ولما كنت شيقى  
ثالت لتخفف على وهي تشير إلى الزمان :

..أحب مولاه وحيروني .

وتغتمت لأمر ما سيب وأضح :

..الحب . . الحب .

فقلت بأسي :

..طلبا تمسعتا بحب من تحب ولكن لا يخلد من الحب إلا  
الحية . . .

..الحية ؟ .

..من الحب الذي ينجو من مغالب الواقع ويقي أملا خلايا .

فبحار سألت :

..هل غاب لك حب ؟

..ليس ذلك تماما ولكن الحب يبدل أحيانا .

..أحدث ذلك أيام اللجد ؟ .

..قد يحدث لي أي يوم .

تفوت إلى سماع الأريد ولكنها تجاملت ريشي ولحظت بطرف  
عينيها زين المايدين عبد الله وقالت :

..انظر إليه . إنه يحيى ، ماذا يريد ؟ . يشرح مشاركي في  
'القوى' ونحوه إلى مطعم ولكنه يطمع أولا في فراشي ! .

١٣

.. إنه مكتئب بالذم ..

.. أحلام لن تتحقق ..

.. لعله غني ؟ ..

.. الحركة في أموال الدولة ! ..

فأثبه رأسى بحركة تلقائية نحو عارف سليمان الساتى ولكنها قالت :

.. ذاك اضغلس من أجل الحب ، أما زعن السابدين فيذهب من أجل الطمع والطموح ، إنهم أنواع يا عزيزى ، منهم من يأخذ لضرورة الجيش لتقصير الحكومة لى حقهم ، ومنهم الطامحون ، ومنهم من يأخذ أعداءه بالأخرين ! .. وبين هؤلاء وأولئك يهجن الشبان للساكين

قللت بإصرار :

.. نعوذ لى موضوعنا الأصلى ..

فأثبت بصد :

.. أنت تعلم أتنى أحب ! ..

وكت قد لاحظت أمورا لفيظتى ملبسا عرايتها قلت :

.. لا تسألنى منه لست خبيا ..

قللت بانما :

.. حلمى حمادة ؟ ! ..

نصفت دون استئذان إلى كرسى الإنارة ومن هناك رميتي

باجتمعة عادية .. خيل لى فى وقت من الأوقات أنه لمعاصيل الشيخ وسرعان ما اكتشفت علاقته الحميمية بزينب «باب» ثم وضح الأمر .. وحلمى حمادة فتى رشيق ووسيم أيضا وذو مناقشات عصبية .. وقد اعترفت لى بترقبه بأنها على اقصى يادأته بالفزول ، وأمام وفاة أيضا .. وتأملت مرة رأيا سياسيا يادلى به ثم مضت له وهى جالسة على مقربة منه :

.. ليحس كل من تريد له الحياة وليست من تريد له الموت !

ولما لى دعوتها انيارة شقتها فى الدور الرابع من العمارة التى تقع الكرك أسفلها استقبلته استقبالا فاعرا ، زيت حجرة الجلوس بالورود ومدت مائدة حافلة وتساعدت أنعام رائحة من جهاز تسجيل .. وقد قالت لى بقة :

.. وهو يحبنى أيضا ، ثنى من ذلك ..

ثم قالت بهدية :

.. ولكنه لا يدرك مدى حسى العظيم ..

ثم بمتاعش :

.. ولا يريد أن يفسى يوما بلا رجعة ..

وهزت منكبها وفتحت :

حكاية قديمة لا جديد فيها ..

.. تعرين كل شيء ثم تعرين حلى المفسى فى طريقك ..

قول مستخيف يصلح شعاراً للحياة ..

قللت باسمها :

.. أشكر نياحة عن الأحياء ..

.. ولكنه جاد وكريم ، وهو أول من تحمس لمشروعي ..

.. أي مشروع من أفضلك ؟ ..

.. كتابة مذكراتي ، إني متحمسة لدرجة الهوس ، ولم يعني إلا  
مجزئ عن الكتابة ! ..

ويحدثني أيضا :

.. أهتم حقا بالفرن وثانيهه ؟ ..

.. هذا جانب من الجوانب ، أما الجوانب الأخرى لتدور حول  
رجال مصر ونسائهم في حياتهم الخفية ! ..

.. أليس العهد الماضي ؟ ..

.. وأخاف ! ..

.. فضائع وما أشبه ذلك ؟ ..

.. لا تخاف أحيانا من فضائع ولكن أمدانها أخطر من ذلك ..

قللت مجدداً :

.. إنه مشروع له خطوره ..

قللت باهتمام ونشاز :

.. ومعلوم له القيامة عند نشره ! ..

قللت ضاحكاً :

.. هذا إذا قدر له النشر ! ..

فتجههم وجهها وقالت :

.. يمكن نشر الجزء الأول دون معاصي ..

.. عظيم ، ودعى الجزء الثاني للزمن ..

تصمت برحمة :

.. لقد عرفت ، أمي تسعين عاماً ..

قللت برحمة أيضاً :

.. ريتا يطول عمرك يا قرفلة ..

\*\*\*

وجئت يرسا في مهادي فوجدت مقاعد الشرايب خالية .. تجدي  
القفص في منظر غريب وخيم عليه هدوء قاتل .. وانشغل الشيوخ  
بأفكارهم وأحاديثهم أما قرفلة فجدلت تنظر نحو مدخل المطبخ  
بترقب وثاق .. وجادت ووجدت إلى جانبها وهي تقول :

.. كم يهجع أحد منهم ، ماذا جرى ؟ ..

.. لعل موعدنا شقيلهم ؟ ..

.. كلهم ! .. ألم يكن يومه أن يهجرني ولو بالقليلون ؟ ..

..أظن أنه لا داعي للقلق.

قالت بحدّة:

..ولكن توجد دواخ للذهاب.

ومضت اللبلة دون ظهور أحد منهم، وحتى مساء اليوم التالي لم يظهر لأحد منهم أثر. ولانجر طبع قرنفلة ومضت لتتغل بين الدواخل والخارج في عصبية.

وسألتني:

..ما تفسير ذلك في نظرك؟.

لحركت رأسي في خيرة، وقال زين الملبدين هيد الله:

..إنهم شبان لا يشعرون على حال ولعلهم انتقلوا إلى مكان أنسب لهم..

قالت له بذهاب:

..يا تلك من خيرا، ولمّ لم تتغل أنت إلى مكان أنسب لك؟.

فضحك بلباهه منيرة وقال:

..إني في أنسب مكان لي..

وكلت على سبيل المواساة:

..سنراهم فجأة مقبلين..

قالت لي همسا:

١٨

..الحزن يتلشى قتلا.

فما كنتها يركة:

..ألا تعرفين أين مسكنه؟.

..كلا، في مكان ما بالحسينية، وهو طالب بكلية الطب ولكن 'لجامعة منفلة لعطلة الصيف، لا أدري شيئا كما ترى.

وكبرت الأيام والأسابيع حتى أوشكت قرنفلة على الجنون، وحزنت لها حزنا بالدا حتى قلت لها:

..أنت تهلكين نفسك بلا رحمة.

..لست في حاجة إلى الرحمة ولكني بحاجة إليه.

وتجنب زين الملبدين المصافاة بالصمت والازدواء وكان يمارى أثرأباصه المميّيق بالتهجم والاستفراق في الذارجيلة. ويرىا قال طه الغرب:

..سمعت من ألياء امعطالات واسعة.

فوجدنا جميعا، وقتل:

..ولكن أعليهم كتني للثورة..

فقال رشاد مجدى:

..ولكن توجد أثلية متالفة لا يستهان بها.

فقال محمد بهجت:

١٩



- وضح الحق، قد أرادوا اعتقال المتهمين فسألوهم أصدقاؤهم معهم حتى يتم التحقيق.

وكانت ترنفة تتابع الحديث بدهول كالإلاحة وترفض أن تفهم شيئا أو تفتح بشئ.

وجرى الحديث بيننا تعليقاً على الحدث:

- لا اعتقال فعل مخيف حقاً.

- وما يقال عما يقع للمعتقلين أفظح.

- شاعرات يفسرن منها البدن.

- لا تحقيق ولا دفاع.

- لا يوجد قانون أصلاً.

- يقولون إننا نعيش ثورة يستوجب مسارها تلك الاستثناءات.

- والله لا بد من التضحية بأخيرة والقانون ولو إلى حين.

- ولكن مضي على الثورة ثلاثة عشر عاماً أو يزيد، لأن لها أن تستقر على نظام ثابت.

أما ترنفة فقد أحملت حملها. كانت خفيب بعض النهار كله وأحياناً اليوم بأكمله، تاركة لأهلها لمارف سليمان وإمام القوال. وقالت لي:

- كم أروع أهدنا من كبرياء للماضى أو الحاضر إلا زهرة وسألتها، ولا جواب عند أحد ولكنك تسمع كلاماً غير متوقع مثل همن

٢٠

أدراكاً؟ أو حذرًا من السؤال ولا سمات المواقف؟ أو «لا فحسب بالشباب في مفهوك». ماذا حصل للدين؟

ولذا يتكررى يتقمص الطفلة جديدة دافعها الأول الحزن العميق. قلت لنفسى حقاً إن حياتنا تخر بالألام والنسيب ولكنها في جملة ما ليست إلا الثغرات الضرورية التي يلفظها الزمان الضيق في شموخه وأنها يجب ألا نتمينا من العظمة في تولدنا وامتنادها. هل عرفنا ما كان يعانيه ساكن الحارة في القاهرة عندما كان صلاح الدين يحقق انتصاره الخاسم على الصليبيين؟ هل تخيلنا آلام أمل القزرى عندما كان محمد علي يكون إرطورية مصرية؟ هل تصورنا عصر النبوة في حياته اليومية والأدوية الجديدة ففرق بين الأب وابنه والأخ وأخيه والزوج وزوجته، فترق العلاقات الحميمة وتحل العذاب مكان التقاليد الراسخة؟ وبما أن لا يستحق إنشاء دولتنا العلمية الاشتراكية الصناعية التي تملك أكبر قوة في الشرق الأوسط، ألا يستحق أن نتحمل في سبيلها تلك الآلام؟ وكنت أشعر طيلة الوقت بأنه يمكن أن أضع نفسى بضرورة الموت وثاقه على هذا المنطق.

\*\*\*

وما ندرى ذات أصل إلا والوجه الغائبة المتفتحة تهوى علينا بفرحة مياضعة. زينب دياب وإسماعيل الشيخ وحلمي حمادة وبصعة نضر آخرين، أما البقية فلم تر لها كراً بعد ذلك. ملنا مرحين، حتى زين العابدين عبد الله اشترك معنا، أما ترنفة فترأعت في مجلسها كأنها غفت أو أغمى عليها، لم تنطق بحرف ولم تنرك، حتى ظل أمامها حلمي حمادة فالتفت لي بصوت متعرج:

٢١

.. ما بأنكم منك!

ثم أجهشت في الإكلاء . وسأل مسائل :

.. أين كنتم يا جماعة؟

فأكثر من صوت أجاب :

.. لي فرحة .

ونهبوا بالفضحك . وعاد الفرح ولكن الوجه تغيرت ،  
فأمر موسى الحليقة أخضت على السحن غرابة فضلا من ذبول  
وأضح في النظرة والحيوية . وتساءل صوت .. ألهة زين المهادين ..  
فأبلا :

.. ولكن كيف حدث ما حدث ؟

فصاح إسماعيل الشيخ :

.. دعونا من هذه السيرة ..

ومضت زيب في غبطة :

.. سنسلي يا سلامة ، رحنا وجينا بالسلامة .

وسمعت اسما يردد ، لا أدري كيف تردد ولا من كان أول  
ناطق به ، خالد صفوان . . خالد صفوان . . ولكن من هو خالد  
صفوان؟ . . محقق؟ . . مدير مصنع؟ . . أكثر من صوت  
يردد : خالد صفوان . . وكنت أعطس من الوجوه النظرات وأكاد  
أبسى الفمالة والذمول وراه الألتمة . . ويمكن أن أقول إن الحيلة لي  
أكثر منك استعادت رويتهما اليومى ولكنها في الواقع فقدت قدرا

٢٦

لا يستهان به من صميم روحها . أسدك سشار كفيف عن شرة  
الغياض المجهولة فمضت كسر معبر تحوم حوله الأسئلة وتردد  
غائبة . وورق المرح والأحداث انتشر الخلد في الجو مثل رائحة  
غريبة مجهولة المصدر . وتحملت كل نكتة بأكثر من معنى وكل  
إشارة بأكثر من مغزى وكل نظرة التبيت فيها البراعة بالترويس .  
وقالت لي قر نغلة :

.. الأولاد عاتوا كثيرا .

فسالها بلهفة :

.. هل لك ذاك شيئا؟

.. إنه لا يتكلم وفي ذلك ما يكفي .

أجل ، في ذلك ما يكفي . نحن في زمن القسوى المجهولة  
وجو أسيس الهواء وأصباح النهار . وجعلت أنفيل وألذكر .  
تذكرت سبور المجرمين وملاحم المذاب وراكين القلوب السود  
ومعارك الغابات . وقلت لنفسى مستعبدا من ذكرياتي أن الدنيا صير  
استعازت بالأرض ملأين السنين ثم ملكت في ساحة من أفراس  
في صراع الوجود والمدم لم يبق منها اليوم إلا ميكل أو  
ميكلان . وعندما يلغنا الظلام أو تستكرنا القوة أو تظربنا نشرة  
تقليد الألهة فإنه يستيقظ في أمانات أراث وحشى ويبحث فينا  
المصور بالآلة . وظلت معلوماتي ترتكز على الخيال حتى أتبع في  
بعد ذلك بسنوات أن تقع في القلوب المخلقة في ظروف جد  
مختلفة وتنادي بالحقائق المرحية وتفسر لي ما أعطى على فهمه  
من الأحداث لي إبان وقوعها .

٢٣

ولم يكف زين العابدين هيب الله يوما من التحلى بالصبر  
ولربب القرعة المواتية، ولا شك أن رجوع حلمي حمادة قد أنسد  
خطفه وحرك مخاوف اليأس في أعضائه فدفعه ذلك إلى مجاوز  
حرمه المجهود لثقل مرة باستهتار على سمع من قرنفلة  
-ن وجودهم باللهي خليف خليف بالإسامة إلى سمعته .

لسأته قرنفلة

- متى تنوى الرحيل؟

تجامل تسولها وذل بنية الوساظ

- لى مشروخ جيم القولاك يستحق العتابة أو الجدية . .

وسأنتى مستوحيا تأليدى

- ما رأيك فى المشروع؟

لسألت بدورى قرنفلة

- ألا ترغبين فى الإسهام بقوة أكبر فى الأعمال الوطنية؟

فكانت بسخرية

- ولكنه يطعم فى ذلك وصاحبة المال

فأدوما قاتلا

- أكثر ارحى يتعلق بالعمل وحده أما القلوب لشعورها بيد الله

دى دلال!

٢٤

فلم بمن يتأففه أكثر، ويدا أن العشق يستأثر بلبها كله . وطلا  
شمرت بأنها غفل دور العاشقة النسياء فاستلأ نلبي نحوها بالمعطف  
والإشفاق . ولم أشك فى أن الفتى يحسها حب مراملة، حتى تكفن  
كيف نفثته وتشره وهو ينهل من منابع حناها، ولكن حتى متى  
يدوم ذلك؟ . وكأنت إلى ذلك تساورنى بعض الشكوك من ناحية  
أطماعه ولكنها قالت فى بقله لا حد لها.

إنه نظيت بقدر ما هو ذكى، ليس من الذرع الذى يبيع نفسه  
ألححت لو صدقت . ولا أسلك ما يدعوى للشك فى صديها، ثم  
إن منظر الشاب وحديثه بدعوان للفتة وأن شابه الذموش أحيانا  
والغفب فى كثير من الأحيان، ولكن ما جدوى كل ذلك حيث  
الحقيقة للجسدة ومن أن قرنفلة قد جاوزت خريف العمر وأنه لم  
يقب لها من تراث الإغراء إلا الذل والإخلاص! . وقد قال فى  
زين العابدين مرة

- لا يفترق منظره . .

فلمت أنه يتحدث عن حلمي حمادة وسأته

- ماذا تعرف عنه؟

- إنه يرصص عصرى أو تنازع خداع

وصمت لحظة ثم وأصل:

- ولى اعتقدلى أنه بحب زيب دياب وسوف يخطفها يوما من

إسماعيل الشيخ . .

٢٥

وأثارت كلمته قلبي، لا لأني اعتبرها إثراء ولكن لأنها أيدت مشاهداتي من المحاضرات التبادلية بين حلمي وزينب. وطالما ساعدت نفسي أمي مودة حميمة أم أكثر من ذلك؟

ولما كانت صداقتي لقرنفل قد أصبحت راسخة فقدموا لتي لشجاعة لأقول لها

– شك كبيرة بالحياة والحب

فقالت بزهو

– لا يجوز لأحد أن يشك في ذلك

فتمسكت

– ومع ذلك . . ؟

– ومع ذلك ؟!

– هل تؤمنين بهالة سعيدة لحبك؟

فقالت بيوهان

– عند ما تحب حقاً فإذا تستغنى بالحب عن الحكمة والبصيرة  
وكرامة

واقترنت بالله من الحب أن تاتش عاكفا في عشقه .

\*\*\*

وللمرة لثانية انضوى الشبان

٢٦

وجع للقدرد فجاهة ولا سلق إلهار كما حدث في المرة الأولى  
ولم يقع أحد منا في حيرة التساؤل وعذاب الشك ولكن اجتاحتنا الأثزعاج والذهول .

وترنحت قرنفل تحت عنب الطفرة وتأومت ذائلة

– ما كنت التصور أنني سألتهم عن مرارة التجربة مرة أخرى .

ومن شدة الأسى صعدت إلى شقتها .

ومياً لنا غيبتها خيرة للمناقشة فقال طه الغريب .

– حتى أنا ورغم البراءة والسبب أخشى على نفسي

فقال رشاد صجلتي متهمك بالارغم من شعوب وجهه

– يمكن أن يشك في أمرك رجال الثورة المرابية لا هذه الثورة!

وتسائل محمد بهجت

– ترى ما وراء ذلك؟

فقال زين العابدين حيد الله:

– إنهم شبان ذوو خطورة لما وجه العجب فيما يقع لهم؟

– ولكنهم من أبناء هذه الثورة!

فصحك زين العابدين وقال:

– الانتماء إلى الثورة حجة شائعة بين أعدائكم، كنت في شبلي  
إذا صبطني أحد في الطريق إلى درب طياب تملتت بأنني ذائب  
للصلابة في الجامع الأحمر!

٢٧

قال، طه الغريب

-إنهم يريدون في نشر الرعب مناسيهم الله

ويعد سرور أيام حالتي قرفلة ، طالعتي بوجه كتيب ثم سألتني بامتنام

-غيرني عن معنى ذلك؟

قرأت خواطرها الخفية ولكنني تجاهلتها، فقلت

-توجد حولنا أسراراً

فتمتعت

- ربح

- بل هو مؤكد ، جميع الناس يتكلمون ولكن من الذي يبلغ لكلام؟

قلقت بعد تردد

-أنت أدري بالكلام .

- لا شك لدى في رجائي ، عارف سليمان ملين لي بحياته  
مام لقوال من رجال الله ، وكذلك جمعة

قلقت

-وشيوخ الملحن في عزلة على شاطئ الحياة .

ويبد لنا نظرة طويلة ولكنها ذات

٢٨

- زين العابدين وغد ولكن لا صلة له بالسلطة فسلنا عن أنه  
يشاماً لا نحرأه

قلت

-يعبر بالقوى كثيرون ونحن لا نلقى إليهم بالا .

تتهدد وتالت بامتنام شديد .

-لم يعد في الدنيا أمان . .

ورجع القصمت المشحون بالأسى وقعدت قرفلة على كرسي  
الإدارة كتمثال لآلة الحيفاء . أجل كانت أمثال ذلك الحوادث تقع  
كل يوم ولكن تأثيرها يختلف إذا وقعت فيمن يعدم الإنسان  
أسرته . وشكنا في كل شيء حتى الجدران والموائد . وصجبت  
لحال وطني . إنه رغم أنحرأه يتفخيم ويتعظم ويتعلق ، يملك  
القوة والقوة ، يصنع الأشياء من الإبرة حتى الصابون ، يشر  
بأفهامه إنساني عظيم ، ولكن ما بال الإنسان فيه قد تضام وتهاوت  
حتى صار في ثقافة بمرحلة ، ما باله يهبط بلا حقوق ولا كرامة  
ولا حمالية ، ما باله يتهكك الجير والحقائق والخواص . وفقد زين  
العابدين أعصابه فجاءه ولا سبب محدد ودراج يقول :

-أنا عزين ، أنا مسي الحظ ، أنا تيس ، الأمانة على يوم ولدت  
ويوم عرفت حلأ القوي . .

تجاهلته قرفلة لنفسى يقول متحدياً .

- ما ذنبي ؟ إني أحبك فما ذنبي ؟ لما تسميحين إلى كل يوم؟

٢٩

لا تعلمين أنه يقتلني قتلا أن أراك وأنت تجوزين حزناً ؟! لا تحترق حبي ، الحبيب لا يحترق ، إنه أسنى من ذلك وأعظم ، أسنى عليك تبعثرين الأيام اليبالية من صمرك المميز بلا رحمة ، وترفضين أن تعترقي بأن ثلبي هو القلب الوحيد الذي يمدك .

وخرجت ترفلة من صمتها وثابتت تحاطبنا نحن

.. هذا الرجل لا يريد أن يحترم حزني !

فقال زين العابدين بمرارة

.. أنا ! إني أحترم أوليائنا ومناقبين وصبريين وقوادين ومرثيين  
كيف لا أحترم حزن من علمني تقديس الحزن من حزني عليه ؟! مدبرة ، أحزني ، استسلمي للفضالك ، تخرقي في وحل الأيام ، زينا معك ..

فقالته يهدوه

.. تعلمه من الأفضل لك أن تذهب

.. لا مكان لي إلا هنا ، وأين أذهب ؟ على الأمل يوجد منا ومهم  
جوني أخاه أحياناً أملاً .

وسرعان ما عاد إلي رثته وهدوه وهو خجلاً . ولكني بسلا  
ستاراً على نهوذه نهضي بقوة ورشاقة جندى ، فظلم نمو ترفلة  
وثال

.. أعثر

وحني رأسه نحية ثم جلس وراح يسخن نار جيلته

وجاء للشهيد بريد القارص وليلته الطويلة فتذكرت أن الأشياء  
كانوا يتلاقون في القهى حتى في الشتاء .. وثبت الدراسة .. ولو  
ساعة واحدة ، وثقت لنفسى إن نقهى بدوهم لا يحتمل . ثم يبق  
إلا الشيخ وقد نسوا المعتقلين وناسوا الرعب والسياسة فمكثوا  
على مومهم الشخصية ، وكأنه لم يعد لهم من عمل إلا انتظار  
الأجل . وراحوا يكون الأيام الماضية ويتبادلون وصفات بنفسه  
خفى واحد هو تأجيل الموت .

.. كل واشرب ولا تهتم فهذا غير شعار في الحياة

.. غير ديقك على كوب ماء وبأحدا لو عصرت عليه نصف  
ليمونة .

.. قال حكيم قديم لى أعجب لك مصر كيت يمرهون  
وعندهم الأيام .

.. اللب الحديث يقرر أن صعود السلم مفيد للقلب

.. ومفيد له أيضا المشى .

.. ويقولون إن الجماع مفيد أيضا للقلب .

.. السياسة وأيام الاعتقالات ومعاصرة العظماء

.. أن يادى مدحى والشاكية أما العمل الممزوج بالمرآة الملكة  
فحدث عنه ولا حرج .

.. والضحك ، لا تنسو الضحك .

.. وكفى واحدة بالتلعج بظل النوم .

- ولهم مولات لا يجوز الاضحية بها

- ومنهم احتياطى للاختيار المصيبة

- ويعد كل شيء وتبيل كل شيء قرآنة القرآن.

أجل القهوى بلا شيباب لا يحتمل، وحتى قرنفلة لا تدرى بأعزائى، ولا تدرى أن الصداقة لوية وظمأى مثل الحب نفسه، وما أتأ الكهرج الخلل وأصاى الوحشة وأرقى الكراسى الجسدة لصفحة بقلب مشرق حزين يتألف على مناجاة أمصليها كتحس فيه نشوة الخمر والابتداع والالام المقلدة

\*\*\*

ولدى زبالي على القهوى ذات مساء لمحت وجه قرنفلة مشرقا على غير عادته . دهشت حقا واجتاحتني قبض من الأمل فاندفعت نحو الداخل ، وسرعان ما وجدتني حبال الأصداء المصبوبين ، زبيب وإسماعيل وحلى وأثنين أو ثلاثة آخرين . وتماثلنا بحمارة وصبوحة قرنفلة تباركتا ، وتبدلنا الأصوات معجبين أين وكيف ولماذا ، ولكن تردد في خمس أسم خالده صفوان الذى صار رمزاً من رموز حياتنا لا تكمل إلا به وقالت لي قرنفلة

- تصور أنه قد وقع سوء تفاهم في مطلع الكشاة وأن البراعة ثبتت في مطلع الصيف ولا تسأل من مزيد ، حسيك أن تصور أن استطعت

ليكن . لا حيلة لنا في ذلك . وقلت لها

٣٦

- ولتصور أيضا أن القهوى أذن كبير!

وتجنبتا حديث السياسة ما سمعنا ذلك ، وقلت لها

-إننا وصت بضرورة إلى الخوف في موضوع وطني فلتكلم متعجلين أن السيد خالد صفوان يجالسنا .

ولكن الحسارة تبليت ملموسة أكثر من المرة الماضية هزلو كآتهم خارجيون من مجاعة ، لاحت بأعينهم نظرة حزينة وسافرة ، ورسم في زوايا أفواههم امتعاض راسخ إن حرارة الحديث تذيب الرواسب فارتأ فرغوا منه واخلوا إلى أكتافهم انخفت الأتمة وتجلي القصور والمزلة . حتى الملائكة الحسية بين زبيب وإسماعيل تعالى داء غفيا لا يكاد يرى عند النظرة لغائرة الأمر الذى أثار صواظي وتسلالاتي يا كطف الله ، إن لكاة الحتمية نطمح أول ما نطمح أصحاب الرأي والإرادة ، فمات

بعض هذا!

وجالستني قرنفلة مرة فلاحظت أنها راغسية ولكنها خير سعيمة . وكنت أعلم أنها لا تجالسنى إلا للروح بشيء قلت أكتبح الخبيث:

- لنزع الله ألا يتكرر المكره . .

فقلت بأسى :

-أود الله كثيراً جداً ، قل له إننا في حاجة شديدة إلى دليل حى على رحمته وعدله . .

٣٣

فَسَائِبُهَا بِالْإِشْطَاقِ

.. مَاذَا أَرِيَاكَ؟

.. الَّذِي رَجَعُ إِلَى حَضَنِي، خِيَالِ، فَأَيْنَ إِذًا حَلْمِي، حِمَامَةُ؟

.. لَعَلْتُ تَقْصِدِينَ الصَّبْحَةَ، وَلَكِنَّهُمْ كُلَّهُمْ فِي الْبُلُوِّ مِوَاهٍ،  
وَسَوْفَ يَسْتَرْدُونَ الْعَالِيَةَ خِلَالَ الْهَامِ.. .

.. لَعَلَّكَ لَا تَدْرِي أَنَّهُ شَيْبٌ شَجَاعٌ ذُو كِبِيرٍ لَهُ. وَأَنْ سَعْلَهُ يَكُونُ  
عَرِضَةً لِلشَّرِّ أَكْثَرَ مِنْ خَيْرِهِ.

ثُمَّ قَالَتْ: وَهِيَ تَحْدِثُنِي فِي هَيْبِي

.. لَقَدْ لَقِدْتُ الْقُدْرَةَ عَلَى السَّعَادَةِ!

لَمْ أَفْهَمْ بِحَقٍّ مَا تَعْنِي بِعَادَتِ تَقُولُ

.. لَقَدْ لَقِدْتُ الْقُدْرَةَ عَلَى السَّعَادَةِ!

.. لَعَلَّكَ تِيَالْتَنِينَ فِي الْفَضَائِلِ.

.. كَلَّا، وَنَحْنُ لَا أَحْمَدُ لَكُنْ مَا هُوَ وَرَوِّ

وَتَهْتَدُ بِحَقِّكَ ثُمَّ اسْتَطَرَدَتْ

.. مِنْذُ مَلَكَتُ هَذَا الْمَقْصِيَّ وَأَنَا دَائِبَةٌ عَلَى الْكُنْيَةِ بِهِ، الْأَرْضُ  
وَالْجُدْرَانُ وَالْأَثْنُ تَنَالُ حِفْظَهَا كَأَسْلَامٍ مِنْ امْتِنَاعِي الْكُلِّي أَمَا هُمْ  
فَيَنْكَلُونَ بِفُلْذَلَاتِ الْإِكْيَادِ، عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ.

ثُمَّ قَبِضَتْ عَلَى ذِرَاعِي وَنَالَتْ

٣٤

.. لَيْتَ صَبَحْتُ عَلَى الْخُضْرَةِ

وَتَرَدَدْتُ طَوِيلًا بَيْنَ أَتْبَهَارِي بِالْعَقْلَمَةِ وَمَقْصِيٍّ لِلْفَرْخِ وَالْإِرْعَابِ  
وَلَمْ أَدْرِكْهُ بِمَكْنٍ أَنْ يَبْطُحَ مِنْ الْخُضْرَاتِ ذُنُوبَ الْيَتَامِ الشَّامِخِ.

وَكَانَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عِبدَ اللَّهِ أَوَّلَ مَنْ تَنَالَنِي.

.. لِي الْبُحْرُ شَيْمُ!

إِنَّهُ يَبْسُجُ إِلَى الْإِذَاعَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ وَيَهْرِقُ أَشْيَارًا تَاهِرَةً، فَمَعْدِنَا  
مِنْ تِلْكَ لَلْمُسْتَسْلِمِينَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا يَتَوَعَّدُ بِهِ، لَمَعْدُو مِنْ  
رَوْحٍ. قَالَتْ:

.. لَيْسَ بِمَعْدِنَا أَنْ تَشْتَبِ حَرْبُ هَذَا الْعَامِ أَوِ الْعَامِ الْبَاقِلِ

وَلَكِنَّنَا كُنَّا وَالْقَبِيلِينَ مِنْ تَوْتِنَا، فَكُلُّ طَهِّ الْفَرِيبِ

.. لَا خَوْفَ عَلَيْنَا إِلَّا مِنْ تَدَخُّلِ أَمْرِيكَ .

وَلَوْ ذَلِكَ لَلطَّلَاقِ دَارِ الْخَدِثِ. وَلَمْ يَفْسُدِ الصَّبْغُ فِي ثَلَاثِ  
الْقُرُونِ إِلَّا حِيَةَ عَارِضَةٍ مِنْ حَلْمِي حِمَامَةُ كَادَتْ تَقْرُوهُنَّ أُرْكَانَ حِيَةِ  
الرَّاسِخِ. فَكَيْفَ تَوْعَمُ أَنْ تَرْتَفِلَةَ تَعَامَلُهُ بِعَطْفٍ لَا يَلِيْقُ بِكَرَامَتِهِ  
فَرُطْنُ ذَلِكَ بِرُؤْيَاهُ وَتَرْتَرُ حَبْرُ الْقَهْصِيِّ لَوْ لَا أَنْ أَسْكَ بِهَ أَصْحَابِيهِ  
وَذَعَلْتُ الرُّؤْيَا وَرَاحَتْ تَعْتَذِرُ لِرُؤْيَاهِ وَهِيَ لَا تَدْرِي بِالْهَدَاةِ مَا ذُنُوبُهَا  
وَرَاحَ يَقُولُ بِهَضِيَّةٍ:

.. إِنَّهُ لَقَرَفُ أَنْ يَفْطِرَ الْإِنْسَانَ إِلَى سَمَاعِ نَفْثَةٍ وَاحِدَةٍ

وَاسْتَطَرَدَّ بِصَدَةِ

٣٥



.. ولما ذكره الأصوات الباقية

وبعدة أعنف

.. ثم راني غشت بكل شيء.

واعتبرنا للسألة عرشها للحال العارمة ونجبتنا لإحداث أي مضاعفات حتى نمر بسلام ، ولم يكن فرح زين العابدين الخبيث عنه شيئاً لو أن حلمي حمادة لم يمتد في غضبه ، ولعله ذم علي ما فرط منه ، ونال القاتل من قرينة خايته ولكنها لم تبتس بكلمة واحدة وقد غمست لي

.. آخر ما كنت أتوقع

فصايتها يلقن

.. أترأه نظن إلى حديثك معي عنه؟

فقلت ذلك بهزة من رأسها

.. أنه سابقه في ذلك؟

.. هي الأولى ، والأخيرة كما أرجو . .

.. يحسن بك أن قللي من الشكوى والثرثمة

فتنهت قائلة

.. إنك لا تدري كم أنه تبيس!

\*\*\*

36

وفي أواسط ربيع العام وقع الاعتداء الثالث!

لم يخر تلك المرة أي تساؤلات ولا عشا في وجود الأفعال تبادلتا النظرات . مزنا روسنا ، نطقنا بكلمات لا معنى لها .

.. كالعادة .

.. نفس النتائج .

.. لا جدوى من التفكير .

أما قرينة فقد صممت طويلا فوق كرسي الإدارة ثم استرسلت في الضحك طويلا حتى صممت عيناها وجدنا ننظر إليها من مجلسنا صامتين .

.. اضحكوا . . اضحكوا . . .

وجففت عينها بتدليها الصغير وواصلت .

.. اضحكوا ، جفت الدموع ولكن لنا الضحك ، الضحك أقوى من الركاء وأسلم هاتية ، اضحكوا من صميم القلوب ، اضحكوا حتى يسمعتنا أصحاب الحرايت بشارعنا السعيد . .

وسكنت دقيقة ثم استأنفت :

.. هل نعوذ لأمر تلعب بانتظام مثل الشروق والغروب؟

سوف يهودون ، وسيجلسون بيننا كالأشباح ، وعهد الله أن أسمى القهوي وتتناك قهقهى الأشباح.

ثم نظرت إلى هارفي سليمان وقالت امرأة :

37

.. قدم كأمسا لكل زبون من زبانتنا الكرام لشرب نخب الغلابين!

وانظرت السهرة في كتابة شاملة

على أننا سرعان ما نسيتنا موعونا القصرية التي تعد شخصية بالقياس إلى الأحداث الكبيرة التي اجتاحت الوطن . فقد تطامرت لشايفات وما ندرى إلا والحجيش للصرى ينطلق بكل ثقله إلى سيناه . فاشتعلت المنطقة كلها بنذر الحرب . ولم يداخلنا شك في ثوبنا ولكن .

.. أمريكا، هي العدو الحقيقي

.. هذا جهنم الجيش انهارت علينا الإنذارات

.. سيترك الأسطول السادس

.. مستنطق الصواريخ نحو الدلتا

.. ألا يصبح استغلالنا نفسه في خطر؟

الحق أننا لم نعد في ثوبنا . دداعت كثير من القمم أمام أمتنا وكو ثلوت أهدى لا حصص لها ولگنتنا لم نعد في ثوبنا . وإنه لتفكير لا يخلو من سداجة ولكن عذرتنا أننا كنا مسحورين ، ومصرين على الأمل ، وبدا أنه فوق طاعتنا أن نكفر بأول تجربة وطنية خالصة جاهت في غمام سلسلة من عصورنا ذلك والاستعباد . وكبتنا متفهمين حتى استيقظنا على أعنف مطرقة صكت دموعنا القملة بنشوات العظيمة . ولئن أنسى ما زلرعه طه لزيه ، وهو أطمنا سنا ، فقد تجلى الأسمى في صيته ونال

٣٨

.. ما أنأ كما على حالة القبر ، ومسيحي الأجل بعد أسبوع  
أوشهر، نيارى لم لم تجعل به قيل أن يدركن هذا اليوم الأسود!  
وأحرق الحزن قلوب الشعب اليرى، ولم يعد له من أمل في  
الحيلة إلا أن يرد القصرية ويسترد الأرض ، ولكن أنصت هنا  
ومنا إلى قلوب تخفق بالشمانة والفرح ، وبدأت أدرك أن  
الصراع ليس صراعاً وطنياً خالصاً ، وأن الوطن يتزوى حتى في  
أشد أحوال المن في خضم صراع آخر يحدد حول المصالح  
والعقائد ، وجعلت أراثب هذه الفكرة فبما لا ذلك من أيام  
وأعوام حتى وضعت جوانبها وفترت جلودها ، فوذا بيوم ٥ يونية  
يسعى في التاريخ من مرة للوم من العرب ونصر القوم آخرين منهم  
أيضاً ، وأنه جهاد ليهتك الستر عن حقائق ضارية ، وليعلن حرباً  
طويلة المدى بين العرب أنفسهم لا بينهم وبين إسرائيل فحسب

\*\*\*

وعقب وقوع الهزيمة بأسابيع عاد الدانيون أو بالأحرى عاد  
إسماعيل الشيخ وزنب دياب وآخرون . وجدنا في عودتهم فرحة  
عذرة ورسد . لا حزن وتندبا طويلا .

وعقب إسماعيل الشيخ بصوت مضطرب:

.. هنا نحن أولاد نمود .

ثم بتره أعلى:

.. وقد قبض على خالد صفوان!

٣٩

قال، محمد بهجت

.. كثيرون انتظروا من مقاعد الحكم إلى أعماق السجون؟

وونعت قرنفلة وراه الخوان وتساءلت

.. أين حلمي؟

ولكن أحدا منهم لم يهيب فداوت تسأل بالحاج وشيق

.. أين هو؟ . . ولم لم يحضر معكم؟

لم ينس أحد بكلمة بل وتجنبا للخطر نحرنا نهضت

.. ألا تريدون أن تتكلموا؟

ولما لم تسمع صوتا صرخت

.. لا . . . لا؟

ثم مضائية إسماعيل

.. تكلم . . قل أي شيء يا إسماعيل

ثم نفوس ظهرها فوق الخوان كأنها تعاني ثمنا في بطنها . . .  
كذلك مدة في صمت شامل ، لم دلت رأسها وهي تمشي:

.. الرحمة يا أرحم الراحمين

وأوشكت أن تنهار فلا أن تلقاها بين يديه عارف سليمان ، ثم  
مضى بها إلى الخارج . عند ذلك قال إسماعيل الشيخ

.. قبل إنه مات في أثناء الصبحين

٤٠

وثالث زينب

.. هذا يعني أنه قتل .

كان الخزن . . كالقصر . . ينسى بسرعة في تلك الأيام . وقد قدمت  
'النزاهة' لقرنفلة ولكنها لم تفقه لكلامي معني .

وانتاحت تلك الموجة الطارئة فمدنا تتابع الأحداث ولشيع  
الأحداث ونداني الأيام فتحملها فوق كواملنا ثم غشى بخطوات  
ثقيلة متعيرة . تستعيد من حدثنا بالتلقي وكأننا نفقي خبرات  
للمجهول بالتلاصق ، ومخاوف الاحتمالات بتبادل الآراء ،  
وجمعلات الجلس العاتية بالكلمات الساخرة الأليمة . والخطايا  
الكبرى بقرارات الاعتراف الحارة ، ولطاعة المسؤولية بتمليل  
النفس ، وتجهيز الجوارح بالأحلام القتملة . لم تكف لحظة عما  
كنا فيه والسماعات تفضي في إثر الساعات ونحن نحترق وننهلك  
وتخوض ظلمات نوثها ظلمات نحيها ظلمات .

وكان أشدنا متاعه خيال الأيام إمام القوالب الجرسون وجمعة  
مساح الأحذية ، فهما يرفضان المهزومة ويصدان الراديو ويحملان  
يوم النصر . ولكنهما عرورا الأيام مضى شعورهما بالكثرة بقر  
واستهلمهما بالحياة اليومية بتضاعد ، ثم اندحرا في طريق التلاميذ  
إلا ما استقر في أعماق النفس من حزن دائم غفى . وأما جمعة  
الشيخ فقد أرادت مع الأيام إلى الماضي .

.. لم نصل إلى مثل هذه الحال في أي عهد من العهود .

.. حسينا ما كنا نستغل به من حماية القانون .

٤١

.. وحتى أعتف إليهم الاستعداد لم تدخل من صوت معارضة  
حر . .

.. وإيام الجهاد والنفي والقداء المجددة كيف يمكن أن تنسى؟  
وما ليكرا أن رجعوا إلى الأوراء أكثر وأكثر حتى استقروا في عهد  
ابن الخطاب والرسول لتتأسسوا في نبيش الماضي يستخرجون  
أجهاده يتسلون بها من حضارهم

وكان زين العابدين عبد الله يبالغهم بين الاحتمام والاستهانة  
ثم أقصم عن رأيه تاللا

..أخلن قلعه وأحده هي أمريكا!

وصادف رأيه موى في نفس عارف سليمان الساتلي فقال

.. صدقت

ثم أشار إشارة شاملة وقال

..سينتير كل شيء من جذوره، وما هذه الصخرة إلا الانقاضة  
الأخيرة قبل تسليم الروح

وبقي الشبان وحدهم لا يسلون أنفسهم للعالمى ولا يملون  
خبيرا في أمريكا، ورويدا رويدا، وبني أمشاق إقائتهم من  
لصدة، راحوا يتكلمون عن معركة بعيدة المدى، وصراخ على  
مستوى لعالم بين قوى التقدم والإمبريالية، وعن تغييرات  
أساسية جوهرية في الداخل . وهكذا . . وهكذا

ويخلاف المسألة العامة لم يحركنى شيء سوى ما طرأ من تغير

٤٦

ملموس على العلاقة بين زئبق دباب وإسماعيل الشيخ قسطن  
مرض مجهول إلى روحهما ليلنا غريبين أو كائنيتين حتى يت  
أعتدل أهما وأيا جيهما القديم التراب وأن كليهما قد استقل  
بحياته وأحزانه . وعند ذاك رجعت إلى ظني الأول عن حبيها  
لحلى حمادة لملت إلى الأخذ به أكثر وأكثر .

وسرني أن أرى قرنفلة وهي تستعيد نشاطها المؤلف . واجمة  
مستحقة أقلب الوقت : تصني ليلنا بلا مشاركة ولا اندماج ،  
وليت أكثر جذبا وأغل في الكير .

وتبرور الأيام غابت وجوه ، وتردوت وجوه بين الغيباب  
والخضور ، واستمر الحال لا يتكأ يتغير . وفي تاريخ متغير نسبيا  
تهيبات لي ظروف وثقت ما بين وبين بعض أصدقاء الكركك ،  
وعند ذاك علمت منهم ما لم يكن لي به علم ، فاطلعت على خبايا  
الأحداث والقلوب وشرت الكأس حتى الشمالة

٤٣

## « إسماعيل الشيخ »

حقاً علمت ما لم يكن لي به علم  
وقد أنار إسماعيل الشيخ أعماقي من أول كلام بيناته القوي  
وقسماته الكبيرة الواضحة فلم أر عليه سوى بذلة واحدة،  
يرتديها صيفاً وشتاء، يخلع جاكته صيفاً ويبدلها شتاء بالإضافة  
إلى بلوزة - ورشم لقره الظاهر خطي بالاحترام، وقد نال أخيراً  
الليسانس رغم اعتزاله لقطعة

-رني ابن بيته فقيرة جداً . حل سمعت عن حارة دهبس  
بالخبيثة ؟ أي عمل في مطعم كبدية ، أمي يباعه سريعة وهي تبيع  
أيضا الخوص والى بحان في مواسم القرانة ، إحدوي الكبار صبي  
جزاز ومواق كازو وإسكالي ، مسكتنا مكوون من حجرة وحيدة  
في قناه دوح ، الأربع كانه أسرة كبيرة يهاوز ألف إذاه الكمسين عدا ،  
وكيس به حمام ولا ماء ، وبه مرحاض واحد في افتناء تعمل إلية  
لياه بالصفالح ، ولي افتناء يجمع التساء ، والتساء والى رجال  
أحيانا ، يتبادلون الأحاديث والكلمات ورجا التسماع والكلمات  
ويأكلون ويصلون

٤٤

## وننظر إلى بينهم ونقول

-لم يتغير شيء جوهري في حارة دهبس حتى اليوم  
ولكنه يستدرك :

-غير أن المدارس فصحت أبوابها ، تلك نعمة لا يمكن إنكارها ،  
دخلت مع الداخلين ، ولعل أي كان يتمنى أن القشل حتى  
يتخلص مني يالحاتي بمرقشعل إحدوي ولكن غيببت فنه  
وواصلت التصلح حتى نلت القنارية العامة ، وأمكنني الانصاف  
بكلية الحقوق ، وعند ذاك غير الرجل رأيته وداخله زمو وعصب ،  
أيمكن حقاً أن يصير ابنه وكيل النيابة ؟ وثمة ولقيشتان ممروشان  
جيدا في حارتنا : الشرطي ووكيل النيابة ، وأهل حارتنا يتعاملون  
معهم كثيراً كما تعلم ، وصممت أمي على أن أستمّر «ولو بعث  
عني» . - والله وحده يعلم كم كلفها أن تحتاج لي بذلة تليق بطلاب  
في الجامعة ولكنها اعتبرتها كعقار يجب المحافظة عليه ، ويجوز  
إصلاحه أو ترميمه أو حتى تجديده ولكن لا يجوز الاستغناء عنه

ثم بسلة :

- الحارة اليوم مشكلة بالتلاميذ والتلميذات ولكن مستقيهم  
مشكلة متداولة بين الأمم

وقد فادت القورة وهو ابن ثلاثة أعوام ، فهو ابن من أبناء القورة  
بكل معنى الكلمة . . ولذلك لم أعف عنه دمعتي لما حل به من  
الأم وقلت له :

- لقد ظك البيض شيوا أو من الإخوان .

٤٥

قال يمين

.. لا هذا ولا ذلك، واتصالي الوحيد كان إلى ثورة يوليو، أما الآن .. وجعل يهز رأسه صامتا كأنها لا يدري ما يقول، ثم قال :  
.. وقد صحت دحرا وأنا أظن أن تاريخ مصر يبدأ بالثلاث  
ولعشرين من يوليو، ولم أتحه للبحث صما وراء ذلك إلا بعد  
لنكسة

واعترف لي بأنه آمن بالاشتراكية المصرية وأن إيمانه بالدين  
لذلك لم يتزعم نساكته

.. عيرني عن إيمانك بها الآن؟

لقطب ذاكلا

.. كثيرون يصبون غضبهم عليها باعتبارها مسببا من أسباب  
لهزيمة، ولكن الحقيقة التي يجب أن تعرف هي أنه لم تكن توجد  
في حياتنا اشتراكية حقيقية، لذلك لأنني لم أعمل معها وإن ثبتت  
أن أقطع الأيدي التي تطبقها، وذلك ما فطن إليه من يادى الأمر  
حلمى حمادة الله يرحمه

.. ده ؟

.. كان شيوعيا!

.. إذن كان يرجد بينكم شيئا؟

.. أجل، ولكن ما ذهبنا نحن؟

وجدته عن زئيب طويلا

٤٦

.. عرفت زئيب في الحارة منذ الطفولة، هي تقيم في نفس الربع  
أهضا، وكنا دائما أياها مشتركة تمرشنا بسببها لضرب بالعضا،  
ولما سمعت حبيبة تجلت سلاحها، كانت تدير لتجذب الأنظار  
ومحرك الأشواق فأصعدني أنا للدفاع عنها مستمدا الشجاعة من  
ذكرات الفتوة في حاراتنا، وفي المرحلة الثانوية حال بيننا أرتيم  
والثقاليد ولكن حينما كان نورا، بإهيب الشاهر وفرغ من ذاته على  
الجميع، وأخيرا وجدنا حريتنا في الجامعة وأهنا خطرنا وانتظرنا  
الفرار بأعنياره ملانة الأخير، وما هي الإسلام تبيد ويموت كل  
شيء..

وجدنا في الجامعة حرية لم يحلم بها من قبل، فوكت الطلبة لا  
يمكن أن يخضع لسيطرة حارة دميس وزعمها، وكل طيبة مستجد  
لها عذرا أو مبررا، لذلك أسفيا ساعات طويلة معا، وتمرفت  
بأصحابه، وأصعبت من أهل الكرك، واعتقلت معه، ونضجت  
شخصيته فوق ما كان يتصور.

وخلصك عاليو تفل.

.. طحتنا أزمة الجنس، وتخطينا حيازتي طويلا، أحاطت بنا  
مفرقت تجارب حرة تجرى من حولنا، وقلت لها يوما. فلا شك  
في حيننا أو إخلاصنا وسوف نصبح زوجين، فما رأيك؟ وكنت  
أحتوي بين ذراعي في عناق حار ولكنها قالت لي: لقد أنسمت  
لوالدي لقلت لها: فعلا أسخيف ولا معنى له. ألا تسمعين ما  
يقال؟ فقالت لي أرتياب: «لست واقعة.. .. ولا أنت!» وكنت  
أعاقى ألاما عذبة وكنت أيضا تعاني..

٤٧

وسألت نفسي إلى أي درجة تعتبر هذا الثوري ثورياً؟ إنه ثوري من نوع خاص وهو لا يخفي إيمانه بالدين . وودت أن أسأله عن موقفه من الحرية الجنسية ولكنني خشيت أن يظن بي رغبة في التسلل إلى أسرار زنيب ، فليت أن أسترده إلى البرج بما لا يرد ليروح به

.. ومع ذلك فالحب الحقيقي يهب متاعه بخلاف ما يتصور كثيرون . ولكنني ما زلت أذكر قوله أيضاً .

.. لي السجن أحتاجنا الفياض فاعتز بنا وأنا الخمين من أسامه  
ولذلكرت أن الهزات المنيفة في حياك البشر تعيقها استغاثات  
جنسية لتسارق حد الخفون ، فماذا يعني يا ثري ؟ . ولكنه عاف ..  
فيما بدا -الرجوع إلى الموضوع . وسأفاته  
.. وحلمى حماده ؟ .

فهتف

.. كان يضغى التقاليد بكل منق

.. أكان من نفس اللية؟

.. كلا ، كان أبوه مدرس لغة إنجليزية ، أما جده فكان عاملاً بالسكك الحديدية

.. أكان يحب قرفة حقا؟

.. أجل ، لا يداخلني شك في ذلك . لقد مررنا ألقهى مصادفة ولكنه أصبر علي العودة لثالا : فلتد إلى مقهى لمرأته لعجبت

لذلك ولكنه قال : «لأنها جليلة . أكم تلاحظ ذلك؟» وكنا رغبين في العودة كذلك ، وقد أحبتنا أيضاً كأصدقاء

ولم تكن جلالية قرفة موضع شك عندي فقد وقعت أنا نفسي في إسامره ولكن حل يكفى ذلك لأعبد عن ظني القوي فيهما يتعلق بحب حلمى حمادة كزنيب ؟ .. ألا يجوز أنه صرح بما صرح به مناداة لمامطة الحقيقية؟!

.. كان يحب قرفة ، لكنه لم يكن سوي في عواطفه ، لكنه كان يروم عاطفة كالحب ولكنها ليست الحب نفسه ، ولكنه على أي حال عاشها معاملة أمينة صادقة ، لم يستجب قط لإغراء استغلالها رغم تيسره له ، وهو لا يخلو من مثالية في سلوكه ، ومن ناحية أخرى كانت أحواله المادية حسنة ، وحسبك أن تعلم أننا ندين في ثقافتنا العامة للكتب المعارة من مكتبة

.. لكنه عطف على تاريخها المجيد

فصحك وتل :

.. كان يصني إليها مظاهراً بالتصديق ولكنه لم يلمن بكلمة واحدة ، وكان يحبها كما هي ولكنه ظللاً سخر من مزاعم تصديق في القرن واقترو بالسلوك التالي .

فقلت له كشاهد محاييد :

.. لقد كنت مثلاً طلياً في الفن والأخلاق!

فقال بحدن :

..لانت فرصة تاناعه!

ولكن لماذا قضى على إسماعيل الشيخ بالاعتقال؟ . خفت أن  
يجيب عن سؤالى .. كما فى المأضى ..بالصمت غير أنه قال مستأنا  
بتغير الظروف والأحوال

.. كانت ليلة ، وكعادتي فى فصل الربيع والصيف كنت أنام  
على أريكة فى القناه تاركاً حيرتاً الوحيدة لوالدى ، مستغرقاً فى  
لنوم عندما شعرت بنهار يهسر على روجى كحلم ، واستيقظت  
على مرة شديدة ، فتحت عيني لضياع بعصرى فى ضوء باهر يتدفق  
فى عيني ، جلست لأزعا لأذا صوت هسأل

..أين مسكن الشيخ؟

قللت

.. هنا ، ماذا تريد؟ ، أنا ابنه إسماعيل .

قال بارتياح

.. عهده

وأعطاً لكشاف لساد الظلام ؛ وبعد حين تبيت أشباحا

..تم معنا

..من أنتم؟

.. لا تخف . نحن من رجال الأمن

..ماذا تريدون؟

٥٠

..مستجيب على بعض الأسئلة ثم يعود ليل طلع النهار

..دعنى أخبر وأرتدى بدلتى .

..لا داعى لذلك أكيتة .

وتقيست يدا على منكبى فاستسلمت ، وسرت بينهم حالتي  
بجلباب النوم ، ثم دفعوا بى داخل سيارة تجلست محاسراً  
بائتين ، ومع أن الظلمة كانت كثيفة إلا أنهم عصبوا عيني وألقوا  
بدي ، فسابت ركبتي وتسللت

..لماذا تعاملوننى هذه المعاملة وأنا بى؟

..أصمت

..خذونى إلى مسئول ومترون!

..إليك فى الطريق إليه .

ركبتى رصبت بمت . بحيث بكل معنى الكلمة ، ورجت ألسان  
عن التهمة المأخوذة بها ، لست شويماً ولا من الإخوان ولا إنطاعياً  
ولم يلقظ لسانى بكلمة تلال حيلة العهد الذى أعده عهدي منذ  
وهيت ما حوئى .

توقفت السيارة فى مكان ما ، أخرجت منها ، ثم سرت  
معصوب العينين بين اثنين يقبضان على ذراعى ، حتى دفع بى لأم  
مكان ، انفكت القبضتان عن ذراعى . سمعت وقع الأقدام ومن  
تبعده وصرير الباب وهو يلق . كانت يداى قد تحررتا كما ردت  
العصاة عن عيني ولكننى لم أرتشعاً كماأنا قد لغدت البصر

٥١



تحدثت فلم يهينني أحد . توخعت أن تنفث الظلمة باعتبارها النظر  
 لديها ولكنها لم تنفث ، ولم يند عن المكان صوت ، ترى أي نوع  
 من المكان هو ؟ ! ، مدهت ذراعي أكتسب للجمال ، تحركت بحذر  
 شديد ، سرت برودة الأرض في قدسي ، لم أحس بشيء إلا  
 الجدران ، لا يوجد في الحجرة شيء ، لا كرسي ولا حسيرة ولا أي  
 شيء ، الظلام وانقرع والخبيرة والرعب ، والزماني في الظلام  
 والصدى يتوقف تماماً وبخاصة وأني لم أعرف متى ألقى القبض  
 عليّ . ولا فكرة لي من متى تنفث الظلمة أو متى تبت الحيلة لي  
 تلك الحيلة الضالمة . ولكن أحب أن أعبرك أن الإنسان يتحائل  
 على لعناته إذا تخطت حدودها ، وأنه في أصناف المذنب يتوثب  
 لطرح همه باستهتار يستوي أن تعده قوة أو رأساً فاستسلمت  
 للمقادير وقلت ليأت الشيطان إن كان مقدوراً له أن يأتي ، وليأت  
 الموت أيضاً . وكففت عن طرح الأسئلة ألقى لا جواب لها ، ولكن  
 طاب لي أن أذكر سارك فيروس الإنفلونزا الذي يواجه للمضادات  
 الحيوية بخلق جيل جديد ذي مناعة ضد المضادات

وسأنته

.. ليت ونقا؟

.. عندما أتهكن الإزعاق قرأمت ، ثم تربت على لا أسألت ،  
 ويشرة فادرنت ، حل تتصور ذلك؟ ، ولما استيقظت ، وتذكرت ،  
 أدركت أنني لقدت صوتي من الزمن ، أي وقت مضى؟ ، في أي  
 لحظة أنا من ليل أو نهاري ، وتحمست ذاتي ، وقلت مستكون مي  
 سامي الكسبية .

٥٦

.. تركت طويلاً؟

.. نعم . .

.. والظلم؟

.. كان الباب يفتح ويدع إلى يطبق به حين أو مائة معلقة

ورعيب

.. والضرورة؟

.. في ساعة محددة يفتح الباب أيضا خيد حوني ععلاق  
 كمصارع السبوك ويؤدي إلى مراحل في نهاية طريقة فائمه  
 مفضي العينين تقريبا فناديا من ألم الضوء ، وما أن يفتح الباب  
 ورأي حتى يصيح بصوت الرعد أسرع يا بن الكلب . . هن  
 تبقى النهار يطوله يا بن الصاعرة؟ ، ولك أن تتصور حالتي في  
 الداخل . .

.. ولا تدرى كم يوما ليت؟

.. الله وحده يعلم بلحيث عند كثافة مية لم تعد تستغنى .

.. ولكنهم حقوا معك ولا شك؟

فقال معهما:

.. أجل . . ويحدث يوما أمام خالد صفوان ا

وسكت مطبقا عينيه في تأثر حتى شدني إلى مجال انغماته

.. مثلت أمام مكتبي عاليا رث الخطايا مهمل الأعصاب ، وزاوي

٥٣

شخص أو أكثر وغير مسموح لي بالتقرب منه أو يسره فضلا عن  
انظر ليما ورائي، فلم أر من المكان شيئا وتركز بهصري الكلل في  
شخصه وتحملت باقية جاذبة من أدميت في رغبة شاملة .

ورسم الامتعاض في قسماكه مليا ثم واصل

- ورغم كل شيء انطبع منظره في أعماقي بقامته الزرعة ووجهه  
لصغير المستطيل وحاجبيه المزيرين الناصبين إلى أعلى وصفيه  
لواسمعين الغافرتين وجهه المسهبة البارزة وكنيه القويين  
وسمته الخالية من أي تمبير، ورغم كل شيء أيضا خلقت بقوة  
ليأس أسطورة أمل في ذاته ثقلت

- أحمد الله على أنني أجده نفسي أخيرا أمام الرجل المشوّل

فأسكتني كلمة جهاتني من وراء ثنأوت هالبا، أما هو فقال

- لا تكلم إلا إذا طوّلبت بجواب

وسألتني عن أسمي وسني وعملتي فأجبت وعند ذلك سال

- متى انقسمت إلى الأخوان؟

فدخلت لغرابية السؤال وأدركت لأول مرة نوعية الكهنة الخرجية  
لي وثقت بمدق

- ما انقسمت إلى الإخوان في يوم من الأيام

مامعنى حله للحية إذن؟

- لقد نبت في السجون

٥٤

- أيعنى هذا أنك عولمت معاملة غير طيبة؟

- فأجبت في شبه استعالة:

- كانت معاملة عربية يأسدي وبلا أدنى مرور.

- ما شاء الله

أدركت أنني أخطأت ولكن بعد فوات الفرصة أما الرجل فراجع  
بسال

- متى انقسمت إلى الإخوان؟

نشرت في الإجابة قائلا

- ما انقسمت . .

ولكن الكلام انقطع . غصت في الأرض بطريقة ملعلة ثم  
ارتفعت الأرض متحدية همتي بما يشبه السحر، وسرعان ما ذهب  
خالد صفوان في الظلام . أخبرتني حلمي حمادة ليما بعد أن ماركا  
يقف ورائي صغمتي بقوة فأخسني على . إذن قد أخسني على، ثم  
وجدتني في الظلام الذي أملت منه على الأسفلت .

قلت يرتام

- ياله من عذاب ! .

- وقد انتهى لجهاد على غير انتظار، في حجرة خالده صفوان  
أيضا، سألوني إليه فيادوني قائلا-

- ثبت أن اسمك دون في السجل لأنك تبرعت بقرش كينام  
جايص ودون أن تكون لك صلة بهم.

٥٥

قلت يا معالي وتهدج

.. ألم أتل ذلك يا مبدئ؟

.. أخطأ له صدر أما انتهاون فلا حذر له

ثم بقرة

.. نحن نحمل الدولة التي نحرركم من كائن أرواح اليهودية

.. ربي من أبنائها المؤمنين

.. اعتبر الأيام التي أمضيتها هنا ضيالة، وتذكر دائما أنك  
عوملت معاملة طيبة، أرجو أن تتذكر ذلك دائما، وأن عشرات  
لرجال سهروا.. ليلا لي، في جهد متواصل حتى ثبتت لهم براءة  
.. الشكر لله ولكم يا مبدئ..

وضحك إسماعيل الشيخ بمرارة عند تلك الأذكري لسأته

.. وهل تضي علي لأخرين نفس السب؟

.. كان يوجد بيتا الثان من الإخوان، أما زيت فقد حققوا معها  
لعملائتها ي وسرعان ما أخرج عنها، وسبى أيضا تضي علي  
حلمي حمادة، لما ثبت برأفي ثبت بالقالي برأته

كانت التجربة تلبية جدا، وسبها كفر بجهاز من أجهزة  
لدولة هو للخبارات أما إسماته بالدولة نفسها، بالثورة، فلم  
يطرق إليه الشك أو التمسك وتصور أنها.. للخبارات.. تمارس  
أمالها في خفاء من للستولين

٥٦

.. تكرت عقب الإخراج عني في أرواح شكوى للمستولين  
ولكن حلمي حمادة منتهى بقرة

.. واضح أنه لم يكن يؤمن بالدولة نفسها!

.. دلي،

وفي أمقاب النكسة اتجه إسماعيل لأول مرة لأدراصة تزيغ  
مصر الحديث:

.. لا أخفى عنك أنني أصبحت بقرة الممارسة وحنيتها واندور  
الذي لمية القضاء المصري، لم يكن التمدد شرا خالصا وكان به  
عناصر فكرية جذرية بالاستمرار والنمو والازدهار، وكان الشكر  
لها من أسباب نكستنا..

\*\*\*

وحدثني بعد ذلك عن اعتقاله الثاني

.. كنت في زيارة لحلمي حمادة في منزله، فادركته عند متصف  
الليل، ألقى القبض علي فور خروجي من البيت، حكلا رجعت  
إلى حجرة الظلام والنزاع:

وتسائل في حيرة عن التهمة التي ستوجه إليه، وطال انتظاره  
الذي وهو يعاني عذابات الجحيم حتى مثل مرة أخرى أمام خالد  
صفوان.

..وقفت صامتا مستقيما من تجرى السائفة، معترضا.. لشر.. وغم  
ذلك.. من جميع الجهات الأصلية، وقرس خالد في وجهي وقال

٥٧

- يا لك من داعية ، حينذاك يوما من الإخوان!

قللت بنيرة ذات مغزى

- وظهورت برامتي!

- ولكن ما غنى كان أعظم

قللت بإخلاص

- إلى مؤمن بالثورة ، هذه هي الحقيقة الأوحيدة

فقال بسخرية

-، خميع مؤمنون بالثورة، لى هذه الحجرة يجهر الإنطاشيون  
وولدوين وانشويون بولمانهم بالثورة!

وحاجنى بنظرة ناسية ثم سأل

- متى انقسمت إلى الشيوعيين؟

ووثب الزانفس إلى حافى ولكنى كتمته وارفع منكباى بحركة  
عكسية كأنما ليغنيا نقاي ، ولم أبس

هاد يسأل

- متى انقسمت إلى الشيوعيين؟

وشعرت بالآذم يلفح حرق عفى ولم أدر ماذا أتول فواصلمت  
لصمت

- ألا تريد أن تعرف؟

استسلمت للصمت كما تموت أن استسلم ليلاه فى الحجرة

معلمة قنصم

٥٨

- طيب!!

ولدت عنه إشارة من يله . سمعت وقع أقدام تقترب فالتصغر  
بدنى . وإذا يشخص يقف إلى جانبي . بطرف عيني أدركت أنه  
أنتى . التفتت نحوها فى دمشة ويلدغ من شعور تهر خوفى ،  
ورعب عى عنت «زينب».

- ما أتت تمرأها وبهيك أمرها فيما يبدو.

ونقل عينيه الفاكوتين بيتنا ثم تسامل .

- ألا بهيك أمرها؟

تجرت روضى دقيقة كاملة

- أتت متقف وذك خيال فهل تنصور ما يمكن أن يعن بهذه  
'لقطة الريبة' فيما لو أصررت على الصمت؟

سأله بنيرة رثاء موجهة للعنينا جميعا

- عالما تريد يا سيدى؟

- إلى أسأل متى انقسمت إلى الشيوعيين؟

قللت دائما آخر شعاع من أمل:

- لا أذكر تلخعا مينا ولكنى أعترف بأننى شيوعى

وسجلت اعتراضى على ورة ثم غادرت الحجرة بين حرمى

أعيد إلى رزائنه ظم يلق تمليدا إفسانيا كما توقع بادئ الأمر  
ولكنه أين من الضياع

٥٩

ومضى عليه زمن لا يدرىه حتى مضى به حارس يوماً إلى باب  
مغلق وقال

.. لمأت اشتقت إلى رؤية صديقك حلمى حمادة!

وأزاح شطاء عن عين سحرية وأمره أن ينظر

.. نظرت فرأيت مشهداً غريباً تدار على "أعشوا" لأول وحدة  
كمن يرى صورة سريالية، لم يبين لي أن حلمى حمادة مغلق من  
تدسيه وهو حامت ساكن، منى عليه أو ميذا فتراجعت فرما  
أترنج وشملت

.. همد غير ..

و نجس صوتى لدى التقالى بنظرته المصوبة على ، وساءل

.. غير مالا؟

شمرت بغيان لعاد سائل

.. هذا غير .. غير مالا؟

.. غير إنساني أليس كذلك؟!، والأحلام الدورية التي نلحمون  
بها أمى إنسانية؟

ومضى زمن أصيب لي ألتاه بأفئدوا حادة عقب نزة برد في  
ذلك الشتاء . واستدعي للقاء خالك صفوان وهو في دور النظام  
وكانت أنصى أماسية في ذلك الوقت أن ينظر إلى أى سجن أو  
معش خارجي ولكن الرجل يادريه قالا يبرود

٦٠

.. إنك سعيد الخط يا إسماعيل

فرجت إليه عيني بأدول فقل

.. ثبت برأيتك أيقضا هذه المرأة!

خارت قواى وشمرت برغبة صيفة في الذوم

.. وكأنت زيارتك حلمى حمادة بريئة، أليس كذلك؟

قللت بصوت لا يكاد يسمع :

.. بلى يا سيق ..

.. إنه شيرضى متحمس ، أليس كذلك؟

لم أدر ماذا أقول وعادوني الحرف

.. لقد اعترف ، ومن حسن حظك أيقضا أنه قد ثبت أنه لا يتنى

تنظيم أو حزب ونحن نصيد اليوم الملمين لا الهواة!

فاستمدت الأمل في الكهجة فقال :

.. واضح أنك تلزم بالصلمت احتراماً لعهد الصداقة!

وسكت لحظة ثم استطرد:

.. وذلك الإيهان بالصداقة يهدنا نطمع في صداقتك

ترى متى يأمر بالانصراف؟

.. كن صديقاً لنا، قلت إنك تنشى للثورة وأنا أصدك، ولكن

صديقاً لنا، ألا برغيبك ذلك؟

٦١

..رله كيسعدنى يا مريدى

..كلذا أبدأ ثورة واحدة وواجب علينا أن نصورها بقوة ، أليس كذلك؟

.. طبع

.. ولكن لا بد من موقف إيجابى ، نريد صداقة إيجابية!

..إلى اعتبر نفسى صديقاً منذ ألبده

..أفرضيت أن تعلم بأن شرا يهدد الثورة وتسكرت معه؟

.. كلا!

..هذا ما نطالبك به ، وستذهب إلى زميل ليهديك سواه لسبيل ، ولكنى أحب أن أذكرك بأن ثورة تلك كل شيء ولا تخفى عنها خافية ، تكافى الصديق وتكمل بالخالق!

..وعند تلك الأذى أسود وجهه واشتد أسده لصداء لم تخفف عنه

..أكان يوسدك أن ترفضي؟

..فقال بمرح

..متجد دائما عذراً ما ، ولكن ذلك لا يهدى!

..مكدا رجع من معتقله مرشداً ذا مرتب ثابت وضمير معذب وحاول أن يوسع عمله باتصاله الثورى ولكن القتل لم يثاقفه أبداً

..لأول مره اجتمع بزنش وأنا شرب لدرجة ، لى حيالى السرية خاصة المجهولة لها وائى يجب أن نظل مجهولة .

٦٦

..أخفيت عنها الأمر؟

..فقدت الأوامر والإرشادات .

..لذلك الدرجة آمنت بقوة تسلطهم؟

..أجل ، ومو إيمان حقيقى ، يقابل إليه الحرف الذى استعملت روى . . . وشعمورى بالسقوط ، ولم أفلح فى إنتاج نفسى بالشرف فكان على أن استعثر بكل شيء ولم يكن ذلك بالنيسر على نظرا فتركيبى الأخلاقى واستغنى الروحية فومت فى التخييل والمغالب . . والآدمى من ذلك أننى وجدت زينب فى صورة جديدة نضاً ما كابة عبيدة ولا أثر لئيبها للشعور بالنجاة فزت إحساساً بالغيرة . .

..ولكنها صورة متونة كما أنها قابلة للتغير .

..وانى لم أعشر على زينب الأصلية أبداً ، وكنت ذات روح مرحة وثابة ، وكان يفسل لى أن روحها لا يمكن أن تظهر ، ولكنها انتهت ، وحاولت تشجيعها ، ولكنها ناجائى مره بقولها «ما أحوالك أنت لى من يشجعك ؟»

..وحدث أمر غارق فى الأسبوع الأول عقب الإراج عنه كنا يسيران معاً بعد الانصراف من الكلية فسأله

..أين تذهب؟

..إلى الكرنك ساعة ثم إلى البيت .

..فالتت وكأنا مخاطب نفسها .

٦٣

..أوه أن أخافو إنيك بعض الوقت

خيل إنيك سرأ يرد أن يتجلى لكال

.. نذهب إلى الحديقة

..أريد مكانا آمنا!

وحل حلمي حمادة للمشكلة بأن دماحا إلى شقة فرغلة ..وهي شقته أيضا ..وتركها مترددين . وقال إسماعيل يلقن برئ

..ستظن فرغلة بنا المظنون

فقالت باستهانة

..نظري ما تشاء!

وعيث به الشك ، وأخذ يدحا بين يديه فقبضت على يده ورجمتها إلى عتقها ، ولاتيا في ثجلة طويلة ، وجدها بعدما مستسلمة بين يديه ، قال

.. كان الأمر مفاجئة ، فسررتي مساعدة ولكن شايها للز ، و تعقدت نوري رأسي تساؤلات سببهة ، وكدت أسألها عن سر استسلامها ولكنني لم أعدل .

وتبادلنا نظري حتى نزل

..لكنها، لأحداث تد مزكها!

لعلها .

..وساوري ندم ، وأكهمت نفسي بأنني انتهزت فرصة ضعف

وإسهار

٦٤

..هل تكر ذلك؟

..كلا

..بلا محاولة من جانيك أو جانيها؟

..بلا أي محاولة . وظلت روابطنا الخارجية وثيقة ولكن روحينا انفصلنا .

..موقف غريب .

..لأنه الموت الطير . وهو من ناحيتي له ما يفسره أما من ناحيتها فلنن من الألفاظ .

..لا حظت تغيرا ما لي علاقتكما في الكرنك ولكنني حسبته عارضا .

..سألها عما عانت في السجن في اللدة القصيرة التي قضتها فيه ولكنها أكدت لي أن معاناتها كانت قصيرة وثالفة . . وقد شيب كماننا اللوري امتعاض راسخ أصبحنا أكثر استعدادا للإعزاء للقد ، انتفضا الحساس ، تضامنت الشعلة ، أجل إن الإيمان الاسمى لم يتفعل ، ولكننا لننا إن الأسلوب يجب أن يتغير وأن القسما يجب أن يستأصل وأن أعران السافيين يجب أن يذميرا ، الثورة الجديدة أصبحت معاصرة . .

وثات مسدا عانا إلى مناقشة الموضوع مع حلمي حمادة في مسكنه ، وتلقى حلمي حمادة .

..إني أصيب كيف أنكما ما زلتما إيمان بالثورة!

٦٥

قال له إسماعيل

.. إن وجود الأملع بالحسم البشرى لا يقلل من جلال العقل .

قال حلمي سائراً

.. إننا نلجأ عند المجهز إلى التشبيه والاستعارة .

ثم قال لهما

.. علينا أن نعمل .

وأعلمهما على منشور مري معقود يتوزع مع بعض أركان  
قفل لي إسماعيل

.. فوجئت بتصرّحه ، فزعت فز هاشدداً ، فنجيت أني لم  
أسمعه ، وتذكرت عملي السري الذي يطالبني بالإبلاغ عنه فوراً ،  
تذكرته لتزكّي كيائي كله ، وتراءت لعيني أحصاء الهلوية التي  
سأردى فيها

ومضت سامة بعد ذلك ، حلمي يتكلم ونحن نصغي أو نلتصق  
بكلمات متقطعة ، غطلي شارد تماماً وحزني ، فقليل ، وقلت له

.. عدلي عن التشاؤم ومزق المشهور

فضحك حازماً وقال

.. يا لك من ماجن حقاً !

ثم مستدركاً

.. زنه ليس الأول ولا الأخير !

٦٦

وقادرتنا بيته حوالي العاشرة . مررتا صامتتين ، أهيبحت أغنى  
أرؤفت علينا تلك التي تخطو فيها إلى أشتات . وانفردتا ، حي بحجة  
'المودة إلى الربح وأنا بحجة اللعاب إلى الكرك . وفشرت في  
الشوارع على غير مدى . صممت عن اتخاذ قراراً . وطيلة نوقت  
عذيتي الخوف على نفسي ، على زئب ، لم أتحذ قراراً . رجعت  
إلى الربح حوالي منتصف الليل . استلقيت فوق الأريكة بلاسي ،  
قلت لنفسي «لا تخدّن قراراً أو فاجن» ، ولكنني لم أتحذ القرار ،  
فمرت كأجمل ذلك إلى الصبح وكنتني لم أكن ، وكنت ساكناً  
سهلاً حين اتحموا على خلوتي . .

.. معنى رجال الأمن ؟

.. أجل .

.. في نفس الليلة ؟

.. في نفس الليلة .

.. ولكنه أمر مدلل وغير مفهوم .

.. إنه السحر ، ولا تفسير له إلا أنهم كانوا كاترا فيجبونا معاً  
ونصنّون علينا من بعد .

قللت له مراتباً .

.. على أي حال فذلك رففت أن تبلغ من صديقت .

.. حتى ذلك لا أستطيع أن أدهيه بصدق لأنني لم أتحذ  
قراراً . .

٦٧



مكلاً وقع الاعتقال الثالث . ومثل أمام خالد صفوان قبيل  
 صبح لمسطله بوجهه البارد وقال  
 - خنت الأمانة وسقطت في أول امتحان  
 فلم ألبس . فقال  
 - حسن ، نحن لا نقسر أحداً على صداقتنا  
 وجلد مائة جلدة ثم أننى به في الزنزانة ، في الظلام الأبدى  
 وحديثي عن مصراع حلمي حمادة فقال إنه مات في حجرة  
 لتحقين . كانت به عصبية وجعرة ، استغفرهم لإجباره ، تلقى  
 صفحات نهاج غشبيه وحاول أن يرد الاعتداء بمثله فانهاه عليه  
 حارس باللكيمات حتى أغشى عليه ، ثم تبين أنه لائق الحيلة  
 - وعشت في الظلام زمناً لا أدريه حتى ثبت في الظلام . .

واستدعى ذات يوم نظن أنه ماضى للقبالة خالد صفوان ولكنه  
 رأى وجهها جديداً ، ثابله بنياً الإزعاج عنه  
 - وقيل أن أشدور الحبس علمت بكل شيء  
 ولا ذ بالصمت ملياً ثم استطرذ  
 - بقصة الطوران من أولها إلى آخرها  
 - تعنى اخرب ؟

- أجل ، مايو ، يونية . حتى غير الكثيري على خالد صفوان

نصفه

٦٨

- أيتها من سادة!

- تخيل حالى إن استطعت!

- أجل . . أستطيع ذلك .

- وكنت الدنيا قد صيرت ذروة الكنيسة وثائق من اللاهوت  
 الأوك فوجدت الميدان مكتظاً بالأسياخ والأحاديث والحكايات  
 والشائعات والكتكات . . وانمقد الإجماع على أننا كنا نميش أكبر  
 أكاديمية في حياتنا .

- وهل شاركت في ذلك الإجماع؟

- بكل قوة المذهب الذى كان يفتت مفاهيمي ، فبخر ليمسي  
 وفقدت كل شيء .

- أفنك اليوم جاوزت ذلك الموقف؟

- درجعت ولا شك ، على الأقل لشرائى حريص على ثرائى  
 الثورة . .

- وكيف كان موقف زينب؟

- عائلتي غاماً ولكنها تكلمت قليلاً ثم صممت إلى الأبد ، أذكر  
 أول لقاء لنا عقب الإفراج عني . تماثلنا بمكانة كريمة ، قلت لها  
 بمرارة : لتتعارف من جديد ونحن بإزاء دينا جديدة . فعاتتني  
 إذن دعني أأقدم لك نفسي . أنا شخص بلا اسم ولا هوية . فقلت  
 لها : إني أعرف الآن غاماً معنى قبض الريح . فقلت لي : الأناضل  
 أن نعرف بمعاصتنا وأن نتمزج معها نهي كل ما بقى لنا . فأخبرتها عن

٦٩

مصروع حلمي حمادة والمحطف لونها وشروت طويلا ثم ثالث نحن الذين نلناه كما قلنا الألف غيره . نقلت . غير مؤمن بما أول . ولكننا ضحايا . ألا يمكن اعتبار الحملي ضحايا . فقلت بامتعاض وسفيرة إن ذلك يتوقف على درجة حماقتهم ، ثم قلنا جميعا في الدواصة كما تعلم ومضت تتقاذنا غطط الحرب ومشايخ السلام ولا يفرح لنا شاطئ وثمة بارقة أمل وحيمة حيث يوجد لعدائون

...أذن تأتت كومن بالعدائين؟

...وعلى اتصال بهم وأكرر جانا في الانضمام إليهم ، ولا ترجع أهميتهم إلى أعمالهم الخارقة ولكن إلى مزايهم القردة التي شغفت عنها الأحداث ، إنهم يقولون لنا إن الإنسان العربي ليس كما يعتقد الكثيرون ولا كما يعتقد هو في نفسه ولكنه يستطيع أن يكون معجزة في الشجاعة إذا شاء

...ولكن هل نودقت زيب على ذلك؟

نسكت طويلا ثم تسأل

...ألم تدر بأنه لم يصد بيني وبين زيب إلا ذكريات زمالة قديمة ؟! ودعشت لاعتزازه بالرغم من أنني توتعتة وأنه جاء مؤيدا للاحطائي واستتجائي ، وسأته

...هل حدث ذلك لهيأة؟

... كلا ، ولكن بس من يسى حتماء راحة جة إلا رادها ، في وقت ما وبخاصة غيب تنفر حاشمرا بأنه أن لنا أن مشرع في

٧٠

الأرواح ، وتحدثت معها في ذلك رغم مشاعري الأليمة الدنية ، فلم تعترض ولكنها لم توافق ، أو قل إنها لم تتحمس ، وتغيرت في معرفة السر ولكنني أرتحت إلى الموقف بصفة عامة ، ثم لم تعد بطرق الموضوع إلا في فترات متباعدة ، ولم تواظب على اللقاء كما كنا فعل ، وفي الكرنك كنا نتجالس كزميلين لا كحبيبين ، ولم أفس أن يواحد تلك الحال بدلت في أحقاب الاعمال الغعي ولكنها استغضلت بعد الاعمال الثالث ، ومضت العلاقة الخاصة نهن وتفتت حتى ماتت تماما .

...مات الحبيب أذن؟

...لا أظن . . .

...حق ؟

...نحن مرضى ، أنا مريض على الأكل وأعرف أسباب مرضي ، وهي مريضة أيضا ، وقد يتعثر الحبيب يوما وقد يستسلم لموت أبدي ، ونحن على أي حال ننظر ولا يورثنا الانتظار . . .

إنهما ينتظران . ومنذا الذي لا ينتظر ؟

٧١

## « زيتب دياب »

من أول نظرة حدثني زيتب بغيوتها وملاحظتها . بوجهها الخمرى  
الرائق وقسمتها السامية في حرية وعدوية وحسمها القوى الرشيق . وعن  
مستند فيها لإعجابي بها بعريزتها العظيمة هو ما يمكن صداقتنا أن تتوطد وإن  
تنتهي إلى دروة نفقة . وهي قد نشأت في بيئة إسماعيل وفي ريعه . أمجد  
سبح خصة رأس وأمه في الأصل عسيلة ثم صارت دلالة بعد كدح  
ضويل . وحدث سبائك وأختان متزوجتان . وبفضل مهنة الأم الأخيرة  
وفرت للأسرة بعض ضرورات العيش وانتاعت لزيتب الحد الأدنى ثم  
بد منها من ملابس . وكان نجاح زيتب في المدرسة أمرا غير متوقع بقدر ما  
كان مثيرا للمعجب والمتعجب . ولم يجلدوا أباسا من تركها تلهو بتلك اللعبة  
حتى ينحس الس الحلال . ولعلك فإن الأم لم ترحب من بادئ الأمر  
بإسماعيل الشح وكانت تعتبر سميد متعطلا بلا نهاية وعقبة في سبيل أي  
فدة هنية . وكانت أم زيتب هي القوة الحقيقية في الأسرة أما الأب فكان



بكبح ماره بغير بصعه فروش ما يثبت أن يددها في حمارة البوفة ويحب  
سعيه بمشاجرة عائلية عنيفة . ومن عجب أن الأب المتدهور كان  
وسيمًا ، يمكن أن يتكشف وجهه الكاخ البات الشعر المغبر الأخاديد عن  
قسمات مبيحة ورثتها زينب أما الأم القوية فكأت أشبه برجل حش .  
ونست لأرمة المتوقعة وزينب في الثانوية العامة إذ تقدم لطلب يدها  
تاجر دحاح يعتبر في الخى الفقير من الأغنياء . كان في الأربعين ، أرمل .  
ثلاث بنات متروحات ، رحت به الأم ليستل بنتها من الربع والتعب  
نصرح وبهين لها حياة سعيدة . وعندما رفضت زينب العرض غضت  
الأم ، ولفح غضبها إسماعيل وأمرته ، ثم قالت لابنتها :

— مستندمين ، متبكين بالدموع الغالية ..

ولم تمر البوفة بسلام فقد أطلق التاجر لسانه فيما بين زيب  
وإسماعيل . فمحر بنت عاصفة في الربع ولكن إرادة زينب انتصرت .  
وكان لتحرية أرها في سوكها ، فتحديا للانهامات الباغية قررت أن  
تحدث عن نفسها . ولم تزل أن تهتم بالرحبة في بصره المعش ٠٠٠  
تؤثر ثقافتها الواسعة في موقفها .

— حين مثل الحفصة في تقديمها الويدة ولدلت وحدث في صدمه  
ثورتا ما تراجح اليه نفسى وبه تستقر .

وكانت تعبه نفسه بإسماعيل بقدر ما تحه ، وتؤمن نائني موقفه .  
وبأنه لن يغير ما به . به معه لو حدث مهما ادعى من أقوال لا يؤمن بها  
في قرارة نفسه .

— وعم حسب الله تاجر الدحاح كان يريدني بأى نم في نيت لأيم .  
ولم يئأس من رفضي يده ، وتشفع عندي بعجوز من المعاملات معه  
ولكنى لقتنه درسا !  
— أراذك بغير زواج ؟  
— وبشمن غال .

وكانت تروى ذلك بمتور بشاقض مع موقفه فقه وفند سر  
فتورها .

— وكذلك زين العابدين عبد الله فيما بعد .  
— لا .

ندت عنى في دهشة فقالت بثقة :

— بلى .

— ولكنه مجنون بقرنفلة ؟

فهزت منكبيها ففسألت :

— أكان يدارى طمعه في مالها بالتظاهر بالحب ؟

— كلا ، كان يحبها ومارى ، ولكنه طمع في مسرة بلس به . وبعد

الوعد ظننى فتاة مستهتره .

— متى أعلن رغبته ؟

— مرات ولكنى أقصد المرة الأولى عقب أول اعتقال .

— رغم عناده اعتقد أنه يئأس من ناحية قرنفلة .

— ولماذا يئأس ؟ ، إنه قابع يتظر رزقه .

ثم ختمت قصصها العاطفية قائلة :

— وغيرهما كثيرون !

وعند ذاك سألتها باهتمام خفى :

— ألم يكن المرحوم حلمى حمادة واحدا منهم ؟ فأجابت بدهشة :  
— كلا !

— أصارحك بأننى تخيلت بينكما حكاية !

قالت بأسى :

— كنا صديقين حميمين .

ثم بلهجة اعترافية :

— لم أحب أن حياى لا يسعبر .

— أما زال هذا الحب قائما ؟

ولكنها تجاهلت سؤالى .

وقصتها مع الثورة مكررة لقصة إسماعيل . وعن أول اعتقال قالت

— قبض على لصائى المعروفة بإسماعيل ، ولم تكن توجد شبهة

بأنى . فسمعت منه أنه يمكن يوما من الإحراق ، ولم أحجره من يومين ولم توجه إلى إساءة .

وابتسمت فى أسى وقالت :

— المتاعب الحقيقية صادفتنى فى البيت وقالت لى أمى : هذا هو

إسماعيل وهذه هى المصاعب التى نجىء من ناحيتها .

وتجهم وجهها وهى تستطرد :

— وتصادف أن جاء اعتقالى بعد أسبوع واحد من القبض على أبى  
بتهمة العريضة والاعتداء على شرطى !

فقلت لها بإكبار :

— أن تقدمك خلال تلك الظروف نجاح باهر !

وقلت لخالد صفوان لم تشكون فىنا ؟ ألا ترى أننا أبناء الثورة وأنك  
مدنيون لها بكل شيء ؟ ، فكيف تهموننا بالعداوة ؟ !

فقال بسخريته الباردة :

— تلك حجة ٩٩% من أعدائنا !

وحدثنى عن إيمانها القديم بالثورة ، كيف أن الاعتقال لم يزل فيها من  
صميمه :

— غير أننا كنا نشعر بأننا أقوىاء لاحد لقوتنا ، أما بعد الاعتقال فقد  
ضطرب شعورنا بالقوة وفقدنا الكثير من شجاعتنا . وبعد ذلك  
فى الأيام ، واكتشفنا وجود قوة خفية تعمل فى سfond كل من يغيب  
تقييم الإنسانية ، وبسبب ما عديبه من عذاب فى فترة حشدنا ، فقلت له :

— أليس من الحكمة أن ننطوى على أنفسنا حينما وأن نتجنب

الاجتماعات والأصحاب ؟ .

ولكنه أجانى ساخرا :

— لقد قبض عليهم بسببى وليس العكس .

فقلت لها معزيا :

— هكذا يعانى الإنسان عادة ثمنا للثورات الكبرى .

فساءلت وهى تنهد :

— متى يمكن أن تقضى الحياة عذبة بلا تعاسات مريرة ؟ ! .

ثم حدثنى عن اعتقالها الثانى . شعرت منذ البدء أننى مقبل على سماع

قصة عنيقة للذكريات .

— كانت التهمة تلك المرة هى الشيوعية ! .

ثم يتأثر عصبى :

— وكانت فترة لا يمكن أن تنسى .

ولما مثلت أمام خالد صفوان قال لى ساخرا :

— ها هى الصداقة بيننا تتوطد .

فقلت له :

— لا أدرى لم قبض على ! .

— ولكننى أدرى .

— فما هو السبب يا سيدى ؟ .

— السبب يرجع إلى مبادئ السيدين الجليلين ماركس ولينين ! .

وصمت وهو يتفكر فى وجهى بحدة ثم قال :

— أجبى تحت شرط ألا ترجمى للحجة التالية ، حجة كيف تشكين

غيتا ونحن أبناء الثورة إلخ ... إلخ ..

فقلت له وأنا يائسة تماما من إقناعه :

— لستنا شيوعيين وأقسم لك على ذلك .

فتمتم بغموض :

— يالللخسارة ! ..

ورميت فى الزنزانة معرضة لعذاب مهين لا تقدر أداه إلا امرأة وكـ

على أن أحيا وأنام وآكل وأقضى الحاجة فى مكان واحد ! .

فغمغمت بأسمى :

— لا .

— وكنت عرضة فى أى لحظة لأن يضربنى الحارس من حلال منفذ

فى الباب ويتفرج على ساخرا ، هل تدرك معنى ذلك ؟ .

— نعم للأسف ! .

— وذات يوم استدعيت إلى مكتب خالد صفوان فى أثناء التحقيق

مع إسماعيل ، ولما رأيته فى ذله ويأسه صفرت الدموع لى عيى ولعلت من

صميم قلبى الدنيا ، ولكنى لم أنق هناك إلا ريثم هدنوه تعديسى ثم رجعت

إلى زنااتى القذرة لأبكي طويلا ولأتعذب يوما بعد يوم .  
واستدعت مرة أخرى إلى حجرة خالد صفوان فقال لى :  
— أرجو أن تكونى راضية عن ضيافتنا .

فقلت بجرارة :

— كل الرضى يا سيدى ، شكرا لكم .  
— ها هو صديقك قد اعترف بشيوعيته ! .

بهتت :

— تحت تأثير تهديدكم .  
— ولكنه حقيقى بصرف النظر عن الوسيلة .  
— قطعاً لا يا سيدى ، إنها لفظاعة ! .

فقال بغموض :

— إنها الروعة ! .

— روعة ؟ ! .

فقال وهو يشير بيده إشارة خاصة :

— مرنى !

وسمعت أقداما تقترب حتى طوفتنى تماما ، ما عسى أن أقول ؟ ! .  
توقف عن الكلام ، تمسكت عضلات وجهها ، وتوقعت مجاع

بغوق ما سبق ، قلت :

قرر أن يرى مشهداً مثيراً وممتعا وحارقاً للشمالوف

— فلنته الحديث إذا شئت ؟ .

— كلا ، إنه مما يسر سماعه .

ثم وهي تنظر في عيني يتحد :

— قرر أن يرى مشهدا مثيرا ومتعا وخارقا للمألوف .

فخفق قلبي بارتياح وتساءلت

— ماذا تعين يا زينب ؟ .

— ما أدركته تماما ! .

— كلا ! .

— بإتمام والكمال .

— أمام عيني ؟ .

— أمام عيني ! .

ومصاد صمت كأنه بكاء أخرس حتى تمتمت :

— أي رجل ذلك الرجل ؟ .

فصعد خالد صفوان .

— لا غرابة في مسيره ، يصبح أن يكون أستاذًا في الجامعة أو رجلا من

رجال الدين .

فقلت بذهول :

— المسألة تحتاج للدراسة ! .

فهمتُ نصف :

— دراسة ؟ ! ، هل ترد الدراسة إلى عرضي ؟

فستحييت ولدت بالصفحة .

\*\*\*

وبعد مرور أسابيع استبدعت إلى حجرة خالد صفوان أيضا ، وجدته

كمادته هادئا أو أكثر هدوءا من المعتاد كأن لم يقع شيء . وبانتصاب

قال :

— لقد نلت براءتك ! .

نظرت إليه طويلا فجعل ينظر إلى شبّات ولا مبالاة ، ثم صحت :

— أرايت ؟ .

فأجاب بهدوء :

— إنى أرى ما يمكن رؤيته ! .

فهمتُ بحق :

— ولكنني فقدت كل شيء .

— كلا ، كل شيء يمكن إصلاحه ونحن قادرون على كل شيء .

فصرخت بجنون :

— لا يصدق أن ما يحدث هنا مما ترضى عنه الثورة !

— إنها حماية الثورة وهي أهم على أي حال من الأخطاء



المحدودة ، ونحن نبادر إلى إصلاح ما ينبغي إصلاحه منها ، وسوف تذهيبين وقد اكتسبت قيمة جديدة هي صداقتنا .

أفحمت في بكاء عصبي طويل عجزت تماما عن مقاومته فتصبر هو هادئا حتى سكث ثم قال :

— متذهبين الآن إلى أحد معاويني وسيعرض عليك مشروع صداقة لا يقدر بضمن .

وصمت لحظات ثم استطرد :

— نصبحتي لك ألا ترفضيه ، إنه فرصة العمر ! .

» » »

أصبحت زينب مرشدة . عرضت عليها امتيازات . تقرر أن يكون بدع غير رغبة حتى حد لإفراحه ، صولت بالسرية المنطقية ، أفهموا . أنها تعمل لحساب قوة قادرة على كل شيء .

— وعندما رجعت إلى بيتي وخلوت إلى نفسي هالتي ما خسرت ، حسرة حد لا نعوس بأني نس . ولأول مرة في حياتي وجدنتي أحفد حتى حتى موت .

قلت معزيا :

— ولكن ..

فدعسي !

— إياك وأن تدافع عني ، إن الدفاع عن الهوان من ضمن الهوان . ثم بحدة :

— وجعلت أردد بإصرار ، إني جاسوسة وعاهرة ! ، وعلى تلك الحال قابلت إسماعيل .

— طبعاً أخفيت عنه أسرارك ؟ .

— أجل .

— لقد أخطأت يا عزيزي .

— كان عملي السري أخطر من أن أفشيهِ لأى إنسان .

— أعنى المسألة الأخرى ؟ .

— منعى الخوف والحجل ، والأمل أيضا ، توهمت بعد أن أصلح الخطأ بالجراحة أنني يمكن أن أطمح إلى السعادة مرة أخرى .

— ولكن ذلك لم يحصل ، حتى الآن ؟ .

فتعتمت بحزن عميق :

— هيات ! .

فقلت برجاء :

— لعل أستطيع أن أصنع جميلا .

فقلت بنبرة ساخرة :

— هيات ، انتظر حتى أكمل قصتي ، ربما أكون قد أخطأت

ولكنى مدعت في الطريق الوحيد المتاحة لي وهى تعذيب النفس ،  
و برأى أقصى عقوبة -١- ، و عتمدت على منطق غير عدلى ، قلت لى  
سنة منورة ، و راعه كل ما حدث له اكفر جوهرها ، واذن فإني مسئولة  
عنه و متحمسة مسئوليتها بالكامل ، و ضمنا فإني مسئولة عن كل ما حل  
بى . لست رفضت تظاهر بخيانة المشرفاء و قررت أن أعيش كما يسعى  
المؤمنون لا كرامة ...

— شد ما ظلمت نفسك .

— و كنت أحتمل كل شيء إلا أن يحتقرنى إسماعيل ، و فى الوقت نفسه  
أرذل أخوه ، ثم اضطرت تفكيرى فضل ضلالا كبير .

و هزت رأسها فى أنى و قالت :

— و حدثت أمور كثيرة تعدر معها إصلاح الحال أو الرجوع إلى نقطة  
شعب .. و رأتى فى نيت احل عم حسب الله تاجر الدجاج .

و مقبها بقلق شديد فقالت :

— وجد الطريق ممهدة تلك المرة .

— لا .

— لا ؟ . قلت هكذا يسعى أن تنصى حياة الساقطة ، و لا يجد

الاستقوط بلا ثمن ..

— لا أصدق .

— و قضت الثمن ...

شعرت بقرف الدنيا كلها و جعلت تحدحى سطوة سحرية ثم فزت  
بتحد :

— و زين العابدين عبد الله أيضا !

فاعتصمت بالصمت فقالت :

— و سَطَ لى إمام نغول احرمون و جمعة مساح لأحبة

— طالما اعتقدت فى شرفهما و وطنيتهما ...

فقالت بدهشة :

— كانا كذلك ولكنهما تدهورا متى تماما . مد حصن الناس ؟

نخيل إلى أنا صرنا أمة من المحرفين ، تكثيف خيانة و هزيمة و غنى تحت

القيم . إلهما يسمعان عن الانحرف فى كل مكان بعدد تبعهم مد ؟

أو كذلك أنهما يحترفان القواعد الآن . و راء حياء ..

فتنهت متسائلا :

— هل نياس يا زينب ؟

— كلا ، إنها فترة كالوباء ثم تتجدد بعدها الحياة .

فواصلت تقول دون اكترات بكلامى :

و قررت أن أعترف لإسماعيل !

فقلت دهشا :

— ولكلك قلت غير ذلك ؟  
 — قررت أن أعترف له بطريقة مبتكرة فسلمته نفسي !  
 — الحق أنى عاجز عن فهم ما بينك وبين إسماعيل ؟  
 — من العبث أن تحاول الوصول إلى منطق ثابت من خلال عاصفة ..  
 — هل تحبين إسماعيل ؟  
 — لم أحب أحدا سواه .  
 — ماذا عن الآن ؟  
 — إنى أشعر الآن بالموت لا الحب ...  
 — زينب ، إليك ما زلت شابة في مطلع الحياة وسوف يتغير كل شيء  
 — إلى أحسن أم إلى أسوأ ؟  
 — لا يوجد أسوأ مما نحن فيه فلا بد أن يكون التغيير إلى الأحسن ...  
 — بعدد فئس . كان في غراء فيما أفعل بنفسى هو الشعور بعداء العقوبة حتى ارتكبت ما لا يمكن التكفير عنه بأى عقوبة ...  
 — حقا ؟  
 — أجل ، بدأت تغزع منى ؟  
 — إنى أرثى لك يا زينب .  
 — ذهبت ذات مساء وأنا وإسماعيل إلى بيت حلمى حمادة وجدناه

ثائرا ، واعترف لنا بأنه يوزع مشورات سرية ..  
 وتوقفت عن الكلام ثائرا للذكرى فرحبت بالامتناع باعتبارها هدية في معركة العذاب .  
 — بوغثت باعترافيه وتميت لو أننى تخلفت عن الاجتماع ..  
 — إننى أفهمك جيدا .  
 — وتذكرت القوة القادرة على كل شيء ، ركنى الخوف ، وخفت أول ما خفت على إسماعيل ! .  
 آه .. لقد اعتقد إسماعيل أنهم اكتشفوا تقاعسه عن الإبلاغ بمسائلهم الخاصة ولم يخضر بباله أننى أوقعتهم فى ريس . وذهبوا وهم يتبرحونها أنها تدفع عنه الأذى !  
 وتبادلنا النظرات فى صمت مثقل بالخزن حتى قالت :  
 — أنا التى قتلت حلمى حمادة !  
 فقلت بصدق :  
 — قتله من قضى عليك بالعذاب ..  
 — أنا التى قتله ، ورغم كل شيء قبض على إسماعيل أيضا ، لماذا ، لا أدري ، وطال اعتقاله أكثر من المرتين السابقتين ، ورجع أشد تهديما ، لماذا ؟ ، لا أدري ، لقد سجلت فى تقريرى أنه عارض صاحبه ونصح به بالعدول عن مشروعه . ولكن من نعت محبوبة بالحكماء من منطق

— كنت أنت ضيفه في تلك الأند ؟

فكنت مسخرة :

— كنت حرة ، أستمع بحريتي ، وبالوحدة والعذاب ، ثم جاءت  
مقدمات الحرب ونذرها ، ومثل الناس جميعا وثقت بقوتنا إلى غير حد  
وقلت لنفسى إن كل شيء بخبره وشره سيخلد إلى الأبد ، فلما وقعت  
بـ قفة ..

وصمت في دهول فكت :

— لا داعى للشرح فقد عانيتاه بأنفسنا ولكن هل أيدت جماهير ،

٣ ٠ ٠ ٠ ٣

— نعم ، بكل قوة ..

— إذن ظل إيمانك لا يتزعزع ؟

— بل لقد انهار من أساسه وآمنت بأنه كان قصرا من رمال .

— اسمح لى بأن أصارحك بأثنى لا أفهم موقفك ..

— لأمر بسيط جدا ، لقد أشفقت من حمل المسؤولية فجأة ، خفت

حرية بعد أن ستمت صويلا إلى الاملاسة . وأنت أكنت من الجماهير

تلك اللحظة ؟

— نعم كنت أتعلق بأخو رمق من الكبرياء الوطنى !

فقالته بمحبة :



كنت حرة ، أستمع بحريتي ، وبالوحدة والعذاب

— عندما علمت بخبر الإفراج عن إسماعيل قلت لنفسى : سأراه مرة أخرى بفضل الهزيمة ! ! .

وتفكرت فى قولها بحزن وألم بالغين .

وحدثنى عن هذين أول لقاء ثم بينها وبين إسماعيل عقب الإفراج عنه :

— ولما تخرجنا وتوظفنا طفى حديث الزواج كضرورة يفرضها حاله . كما برده دلائيم وبعده إلى العزلة ، وليس غريباً أن أتغير وأتعلل عن حلم الماضى ولكن ماذا غيره هو ؟ ... ماذا حدث له فى أعماق لسانه ؟

كل منهم مقتنع بتعبه هو ولكنه يتساءل عن تغير الظروف الآخر .  
 . بل منهم منسحب بأنه غير صالح لحياة الطبيعية . وأما مقتنع معهما بذلك من رأى فى هذه تجربة جديدة . ديمهم وقت كاف لتضميد الجراح .  
 . منهم منسحب . بل يبرم عمل يكون من شأنه إعادة الثقة إلى النفس .  
 . أحقرهم من شخصية . غير أن مناقشة تلك الأمور تعددت على طبيعة الحال ولكننى قلت مستترا بالعموميات :

— الإنسان لا يتغير — أعنى إلى أحسن — لا بالاستسلام ولا بالانتظار ..

فقلت بامتعاض :

— ما أسهل التفلسف !

— ربما ، ولكن إسماعيل يتوجه بقلبه هذه الأيام نحو الفدائيين .

— أعرف ذلك .

فتساءلت بعد تردد :

— وفيهم تفكرين أنت ؟

فصمتت فترة غير قصيرة ثم قالت :

— قبل أن أجيبك على أن أصحح واقعة نقص إمام لغوى وجمعة .

فالحق أن وسطتهما بين زين العابدين وبينى عقب الاعتقال الذى تمت

بجهل وبراعة ..

— أتعتين أنهما بريتان على رمتيهما به ؟

— كلا ، ولكنهما سقطا فى الأعوام الأخيرة لأقل دنس . وقد شفى

على الأمر وأرجو أن تذكر أنى أروى قصتى من تذكارة وئى لأصغر

الدقة فى تفاصيلها ..

فهزئت رأسى وكررت سؤالى :

— فيم تفكرين الآن ؟

— أهيئك حقاً أن تعرف ؟

— الحق أنى لا أتصور أنك مستمرة فى ..

وتوقفت رغماً عنى . فقلت تكمل كلامى :

— ممارسة البغاء ؟

فلم أنكر ولم أوافق فقالت :

— أشكر لك حسن ظنك .

فلم أعلق بكلمة فقالت :

— إن أمارس حياة متقشفة بكل معنى الكلمة .

فتساءلت بفرح :

— حقاً ؟

— أجل .

— وكيف حدث ذلك يا زينب ؟

— سرعان ما حدث ، بثورة مضادة ، ونتيجة لقرف لا يزول ...

ثم تساءلت بخنان :

— أين أيام البراعة والحماس أين ؟!

## « خالد صفوان »

في الكرنك يسيطر حديث واحد ، يوما بعد يوما ، أسبوعا بعد أسبوع ، شهرا بعد شهر ، عاما بعد عام ، لا حديث لنا سواه . الجميع في ذلك سواء... محمد بهجت ، رشاد مجدى ، طه القريب ، زين العابدين عبد الله ، إسماعيل الشيخ ، زينب دياب ، عارف سليمان ، إمام القوال ، جمعة ، وشبان حدد هم آخر عبة في تعذب لأحياء ، أما قرنفل فقد انزوت في ثوب الحداد تراقد وتضج أحيانا ولا تخرج من الصمت .

ويضئنا الملل كثيرا حتى يقول قائلنا :

— اختاروا موضوعا آخر قبل أن نجن .

فتحمس لاقتراحه بالألسنة ، نطرق موضوعا ما ، يعالجه فتثور فسرعان ما يلفظ أنفاسه فعود إلى موضوعنا الباق ، نقتله ويقتلنا بلا توقف ، بلا نهاية .



١ خالد صفوان

- الحرب ، لا سبيل إلا الحرب .
- بل العمل القتالي ونركز على الدفاع .
- الحل السلمي ممكن أيضا .
- الحل الوحيد الممكن هو ما تفرضه الدول الكبرى مجتمعة .
- المفاوضات تعنى التسليم .
- المفاوضات ضرورة ، كل الأمم تتفاوض ، حتى أمريكا والصين وروسيا وباكستان والهند .
- الصلح معناه أن تسيطر إسرائيل على المنطقة وتزودها لقمة سائغة .
- كيف نخشى الصلح ؟ ، هل ازددنا الإنجليز أو الفرنسيون ؟
- إذا أثبت المستقبل أن إسرائيل دولة طيبة عايشناها ، وإن ثبت العكس أزلناها كما أزلنا الدولة الصليبية من قبل ...
- المستقبل لنا ، انظر إلى عددنا و ثرواتنا ...
- المسألة علم وحضارة ..
- إذن فلنحارب ، لا حل إلا الحرب ...
- روسيا لا تمدنا بالسلاح الضروري ...
- لم يبق إلا حالة اللاسلم واللاحرب ...
- هذا يعنى الاستنزاف الدائم لنا ..

- معركةنا الحقيقية معركة حضارة ، السلم أخطر علينا من الحرب ..
- مسرّح حينئذٍ وليس أنفاساً من جديد .
- لعلنا الحياء ونطالب الدول الاعتراف به .
- « مدنيون ؟ .. أنت تتجاهل القوة الفعالة في الموقف ...
- لقد هربنا وغيبنا أن يدفع الثمن وتركنا الباقي للمستقبل ...
- عدو العرب الحقيقي هو العرب أنفسهم ...
- في حكمه .
- قل أنظمتهم الحكم .
- كل شيء يتوقف على اتخاذ العرب في العمل .
- لقد تعمق نصف العرب على الأفق في ٥ يونيو !
- « مدنيون ، لا مفر .
- غصبة ، دين ، نديس هو كل شيء ..
- بل الشيوعية !
- بل الديموقراطية .
- لترفع الوصاية عن العرب ...
- أخيرة .. أخيرة ..
- الاشتراكية ..

- لنقل الاشتراكية الديموقراطية ..
- لنبدأ بالحرب ثم نتفرغ للإصلاح .
- بل نبدأ بالإصلاح ثم نتقرر الحلول في المستقبل .
- يجب أن يسير الاثنان معا .
- وهكذا إلى ما لا نهاية ..
- وذات مساء جاء المقهى رجل غريب يتأبط ذراع شاب ، محسباً من كتب من المدخل ، وقال للشباب بصوت آمر :
- سأنتظرك هنا حتى تشتري الأدوية ، أسرع .
- وذهب الشاب وليث الآخر جالسا . كان متوسط القامة ، ذا وجه ضخم مستطيل وحاجبين غزيرين عريضين ، وعينين وصحيتين غائرتين ، وجهة بارزة ، وكان شاحب اللون كأنه مريض أو في دور النقاهة . وسرعان ما همس إسماعيل الشيخ في أذنه :
- أرايت الرجل الغريب عند المدخل ؟ .. نظريته ..
- وكان قد لفت نظري كأى عربي بطراً على المقهى . فسأته :
- ما له ؟
- فأجاب بصوت متهدج :
- إنه خالد صفوان !
- فاجتاحني الدهول وغمغمت :



— حائد صموان ! .

— دون غيره .

— هل أفرج عنه ؟

— انقضت مدة سجنه وهى ثلاث سنوات ولكن أمواله مصادرة ..  
ورحت أسترق إليه النظر بحب استطلاع وتعجب ، أود أن أشرحه  
لأعثر على العضو الرائد أو الناقص فى كينونته . وانتقل الخبر من فرد إلى  
فرد حتى ساد الصمت وتناوبت الأبصار . وغفل عنا حيناً ثم مضى  
يستشر التطلعات المبهمة من حوله فتنبه إلينا كمن يستيقظ من نوم .  
تحرّكت عيابه العائرتان ببطء وحذر ، رأى ولا شك وجوها يعرفها حتى  
لنعرفه مثل ريس وإسماعيل ، ونظر باهتمام إلى قرنفة ، ثم مد ساقه ،  
وتعمّص شعناه ، لعله انبسم ، أجل لقد انبسم ، ولكنه لم يضطرب كما  
توقعت ، لم يخف وعنه ند صوت ضعيف يقول .  
هائى !

ونظر إلى الوجوه التى يعرفها وقال :

— وقد يلتقى الشيطان ... !

وأغمض عينيه لحظة ثم قال وكأنما يخاطب نفسه :

— شد ما تعيرت يا ديا ، إنى أعرف هذا المتهى ، ها نحن نجتمع فى

مكان مع أسوأ الذكريات ..

فقال قرنفة ولم تكن سمعنا صوتها من زمن طويل :

— حقاً أسوأ الذكريات !

فوجه إليها الخطاب قائلاً :

— لست الحزينة وحدك اليوم .

ثم بصوت أقوى :

— كلنا مجرمون وكلنا ضحايا .

فقال بحدة :

— المجرم شخص والضحية شخص آخر .

— كلنا مجرمون وكلنا ضحايا ، من لم يفهم ذلك فلن يفهم شيئاً على

الإطلاق ..

وعند ذلك رجع الشاب فسلمه لفافة الأدوية وأشر إلى روستة وهو

يقول :

— هذا الدواء غير موجود فى السوق .

فنهض خالد قائلاً :

— عظيم ، المرض موجود أما الدواء فغير متوفر ..

ونظر إلينا وهو ينهم بالذهاب وقال :

— لعلكم تتساءلون ما قصته ؟ ما قصة ذلك الرجل ؟ . نعدونها فى

هذه الكلمات المنشورة :

مراة في القرية .

وطنية في المدينة .

ثورة في الظلام .

كرسى يشع قوة غير محدودة .

عين سحرية تعرى الحقائق .

عضو حي يموت .

جرثومة كامنة تدب فيها الحياة .

ثم مضى يقول :

— إلى اللقاء .

وحب وراءه ذهولا شاملا ، قال قوم إنه بهذى ، وقال آخرون إنه بهر . وغير هؤلاء وأولئك قالوا إنه يحاول الدفاع عن نفسه ، إنه يقول به بدأ من البراءة وأن قوى عشومة أسلذته ، ولكن ما العين السحرية ؟ ما العضو الخفى احدى مات ؟ ما الجرثومة الكامنة التى دت فيها الحياة ؟ !

\*\*\*

وبعد مرور شهر فاجأنا خضوره كأول مرة ، تساءلنا لماذا يعود ؟ . لم لم يختبر مكانا آخر ليتنظر فيه ؟ .. أهو يتحدثانا ؟ .. أهو يستعطفنا ؟ ... أئمة قوة خفية تدفعه نحونا ؟  
قال وهو يجلس :

— أسعد الله مساكم ..

ثم وهو يقلب عينيه في وجوهنا :

— عندما يأمر الله بالشفاء سأنضم إلى مجلسكم ..

فسأله منير أحمد وهو آخر من انضم إلينا من أحدث الأجيال :

— هلا فسرنا لك كلمتك المنشورة ؟

فقال بيقين :

— إنها واضحة بنفسها ولا تحتاج إلى تفسير ، ثم إلى أكره الحوضين ذلك !

فقال له قرنفلة :

— يا خالد بك .. إنك تزعجنا !

فقال بهدوء :

— أبدا ، لا شئ يعرب بين الناس مثل العذاب المشترك !

ثم بعد صمت قصير :

— أعدكم بالانضمام إليكم في أول فرصة !

وضحك ضحكة خافتة وتساءل :

— فيم تتحدثون ؟

وسكتنا في حذر ، فقال :

— إنى أعرف ما يقال ، إنه يقال في كل مكان ، سمحوا لي أن أوضح

لكم البواعث .

واعتمد في جلسته ثم واصل حديثه :

— يوجد في وطننا دينيون ، وهؤلاء يهيم قبل كل شيء أن يسيطر الدين على الحياة ، فلسفة وسياسة وأخلاقا واقتصادا ، وهم يرفضون التسليم للعدو ويأبون المفاوضة معه ولا يرضون عن الحل السلمي إلا أن يحقق لهم ما يحققه النصر نفسه ، أو فإنهم ينادون بالجهاد ، ولكن أى جهاد ؟ ، تراهم يعلمون بخوارق الفدائيين أو بمعجزة تنزل من السماء . وقد يقبلون السلاح الروسي وهم يلعنون الروس وبشرط أن يجيء دون قيد أو شرط ، ولعلمهم يفضلون حلا سلميا مشرفا يتحقق بتدخل أمريكا ونهى علاقتنا بروسيا الشيوعية نهائيا .

وصمت لحظات ثم واصل :

— ويوجد يمينيون من نوع خاص ، يتمنون التحالف مع أمريكا وقطع العلاقات مع روسيا ، ويرضون بحل سلمي مع تنازلات لا مفر منها ، ثم يعلمون بالتخلص من النظام الحالي ، والعودة إلى الديمقراطية التقليدية والاقتصاد الحر .

ويوجد شيوعيون — والاشتراكية فضيلة منهم — يهيمهم قبل كل شيء — الأيدولوجية وتوثيق العلاقات بروسيا ، ويرون أن خير الوطن وتقدمه لن يتحققا إلا من خلال الأيدولوجية ولو طال الانتظار ، ولذلك

فهم يرحبون بالحل الذي يرسخ الاتجاه نحو الشيوعية وروسيا سلما كان أو حربا ، أم الحالة التي يطلق عليها اللاسلم واللاحرب .

ومن عجب أنه اكتسب شعبية عقب انصرافه ، ونوه كثيرون بقيمة عرضه ، وببراءة غزونه من الأسرار ، بل وجد من يدافع عنه فيقول إنه لم يكن مسؤولا عن جرائمه أو لم يكن يتحمل المسؤولية الأولى ، حتى قالت قرنفلة محتدة :

— زحزحوا المسؤولية من شخص لشخص حتى تستقر في النهاية فوق كاهل جمعة مساح الأحذية !

ولكن وجد استعداد لقبوله إذا قرر حقا الانضمام إلى الكرنك .

\*\*\*

ونسى أمره تماما خلال ثلاثة أشهر ، ولما جاء مع تابعه في نفس الميعاد من المساء استقبل استقبالاً عاديا كأنه فرد عادي من الناس ، ووجد نفسه في عزلة . ولذلك فتح هو الحديث من ناحيته فتساءل مقتحما لا مبالا :  
— أما زلتم تتحدثون ؟ ..

فقال له زين العابدين عبد الله :

— كالعادة !

فأصر على أقناع نفسه قائلا :

— لقد حدثتكم عن آراء الطوائف ولكننى لم أحدثكم عن رأى .

فسأله منير أحمد :

— عن الحرب ؟

فقال بعجلة :

— هذه النقطة بالذات تحير العقول ولكنى أراها بسيطة . فثمة

هزيمة ، وعدم استعداد للحرب ، فيجب أن نغلقها دون إبطاء ولو دفعنا  
الظن ، لننتفح كل ملهم على تقدمنا الحضارى ، ولكنى فى الحق أريد أن  
أتكلم عن حياتنا بصفة عامة .

ونجح فى أن يلفت الأنظار إليه فقال :

— سأعترف لكم فى الدقائق الباقية لى هنا بخلاصة تجربتى ، لقد  
خرجت من الهزيمة أو قل من حياى الماضيه مؤمنا بمبادئ لن أحيدها عنها ما  
حيث ، ما هى هذه المبادئ ؟ .

أولا — الكفر بالاستبداد والديكتاتورية .

ثانيا — الكفر بالعنف الدموى .

ثالثا — يجب أن يطرده التقدم معتمدا على قيم الحرية والرأى واحترام  
الإنسان وهى كفيلة بتحقيقه .

رابعا — العلم والمنهج العلمى هو ما يجب أن نتقبله من الحضارة  
الغربية دون مناقشة أما ما عداه فلا نسلم به إلا من خلال مناقشة الواقع .

متحررين من أى قيد قديم أو حديث .

ثم تشاءب وهو يقول :

— هذه هى فلسفة خالد صفوان التى تعلمها فى أعماق الجحيم ،  
والتي أعلنها فى الكرنك حيث يجتمعنا النفى والجريمة .

\*\*\*

ملت نحو منير أحمد وقلت :

— لعل أيامكم تكون أفضل .

فقال :

— أماننا جبل شاهق علينا أن نزيعه .

فقلت بصدق :

— الحق أنكم — أنت وزملاؤك — ثمرة لم تكن متوقعة ، فمن ظلام  
شامل انبعث نور باهر كأنما تخلق بقوة السحر .

— إنك لا تدري بالآمننا .

— ولكننا شركاء .

رمقنى بشدة فسألته :

— خبرنى ما أنت ؟ .

— ماذا تعنى ؟ .

— تحت أى صفة سياسية يمكن أن أصنفك ؟

فقال بضجر :  
 — اللعنة على الصفات جميعا .  
 — من حديثك اقتنعت بأنك تحترم الدين ؟ .  
 — ذلك حق .  
 — وفهمت أيضا أنك تحترم اليسارية ؟  
 — ذلك حق .  
 — إذن فما أنت ؟  
 — أريد أن أكون أنا بلا زيادة ولا نقصان .  
 فتفكرت قليلا وقلت :  
 — أهو شوق للأصالة ؟ .  
 — ربما .  
 — أيمنى إذن الاتجاه نحو الحضارة الغربية ؟  
 — كلا .  
 — إذن فأين توجد الأصالة ؟  
 فأشار إلى صدره وقال :  
 — هنا .  
 فتفكرت مرة أخرى ثم قلت :  
 — لعل الأمر يحتاج إلى مزيد من المناقشة .



إذن فأين توجد الأصالة ؟  
 فأشار إلى صدره وقال : هنا !

فقال براءة :

— أعتقد أنه ينبغي أن نتناقش طويلا .

وأعلنت إعجابى بالشباب كثيرا حتى برم في زين العابدين عبد الله فقال

لى مرة هازئا :

— سيجد نفسه بعد عامين أو ثلاثة موظفا بمبلغ زهيد فيختار بين

أمرين لا ثالث لهما ، الانحراف أو الهجرة ؟

فغضبت قرنفة وقالت له بحدة :

— متى تحطئ فتتطرق بكلمة طيبة ولو مرة ؟ .

فابتسم الرجل فى استسلام وقال :

— الحقيقة مرة يا صاحبة السعادة .

فقال بعناد :

— يوجد سبيل ثالث .

فسألها بخضوع :

— ما هو يا مولاي ؟ .

— هو الذى سيختاره صاحبنا ! .

سررت جدا بانفعالها وعدده علامة طيبة على بدء العودة إلى الحياة مرة أخرى ، ولكن خطر لى خاطر مثير ، وتساءلت ترى هل شرعت قرنفة تميل إلى الطالب ؟ ، هل سيحل يوما محل حلمى حمادة ؟ . إلى لا أجهل

حال بعض النساء فى تلك السن وولمهن بالمراهقين ، والتفانى فى ذلك لحد المغامرة والهوس ، ووجدتسى أتمنى — لو وقع شيء مما دار بخاطرى — أن يمضى على صراط متوازن بلا أنانية من جهة ولا استغلال من الجهة الأخرى ، ليتحقق للحب النقاء والبراءة .

ديسمبر : ١٩٧١

تمت